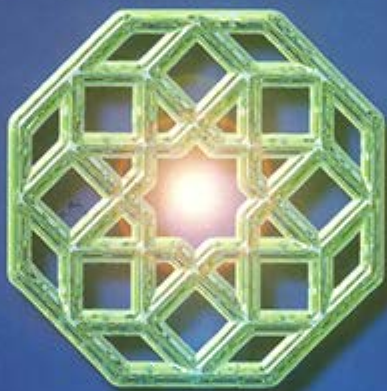
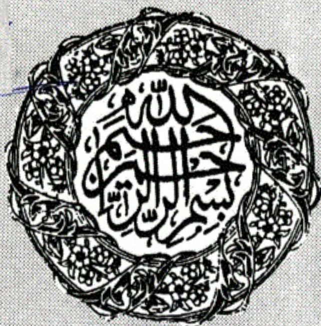


نُبذ من المعارف الاسلامية

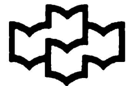
آية الله محمد اليزدي



نُبذ من المعارف الاسلامية

محمد اليزدى





النّاشر نداء المهدي (عج)
قم - ص - ب ٣٧١٨٥ - ٥٦٣
هاتف ـ فاكس ٧٣٢١٨٧

نُبذ من المعارف الاسلاميّة

مؤلّف آية الله الشّيخ محمّد اليزدي
الطّبعة الأولى صيف ١٣٧٦ هـش
الكمية ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة الهادي
ISBN ـ ٩٦٤ ـ ٩١٥٤٥ ـ ١ ـ ٥

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

المقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ محمّد وآله الطاهرين ، ولعنة الله علىٰ أعدائهم أجمعين . وبعد :

المراد من المعارف الاسلامية : مالابدّ من معرفتها حتىٰ يرتبط الإنسان بالإسلام ، والتي كلما ازدادت معرفة الفرد أو المجتمع بها ازداد ارتباطه بالاسلام كما هو ، سواء كان ذلك من الأصول الإعتبارية المشتركة في الشرائع الإلٰهية من الكلّيات ، أو كان من الأصول العملية الإجتماعية المختصّة بالاسلام في شتات وجهاته ومختلف شؤونه .

الانسان يعيش علىٰ وفق تفكيره :

من المعلوم انّ الإنسان يعمل حسب ماأدرك مما أحاطه ، واستنتج مما أثّر فيه عن طريق السمع والبصر وغيرهما من قواه الرابطة بينه وبين عالم العيان والخارج ، سواء طابق إدراكُه الواقع وصادفه فكان حقاً ، أو لا . نعم ، ان للانسان ميزاناً لتشخيص موارد الخطأ ، فُصِّل في محله في علم الميزان ، إلاّ أنه يرىٰ إدراكه ونتاجه صدقاً وحقاً لايخالف الواقع ، فيعمل بحسبه . فالإنسان يعمل كما يعلم ؛ هذا حسب النوع والغالب ، وإلاّ فكثيراً مايتّفق أن يعمل على خلافه وهو يعلم أنّه خلافٌ فينافق عملُه علمَه ، ويطارِدُ كلٌّ الآخر ، وهو أيضاً علىٰ مبانٍ أُخرىٰ من توهّم النجاح في ذلك وتخيّل الفلاح في نهاية المطاف ، أو من غلبة الهوىٰ وسلطة الشهوة علىٰ مباني العمليات العقلية ، على كلام مبسوط في تضارب مبادئ الأعمال الكائنة في الجسم

والحياة المادية من الغرائز ؛ أو في الروح والحياة المعنوية الإنسانية ، وعلل تـقدّم بعض علىٰ آخر أو غلبة مرحلة علىٰ أُخرىٰ علىٰ مافي علم الأخلاق .

والحاصل تسلّم ذلك الأصل علىٰ أساس أوّلي هو : انّ الانسان يعيش كما يفكّر ويعمل كما يعلم حتىٰ أنّه يمكننا بذلك استكشاف علمه وتفكيره واستعلام نحو تصوراته بل تصديقاته وعقائده من العمل ، فإنّه الطريق الوحيد الى علومه وأفكاره .

ثم ان العمل يعاضد العلم ويعاونه ، فكل إدراك نتاجُ عمل على وفقه ، فهو أركز في النفس من غيره ، وكلما ازداد عملاً ازداد تركّزاً الىٰ أن ينقلب القلب بلونه ويتحوّل الىٰ صبغة كائناً ماكان ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ (١) .

اذا عرفت هذا فلايبقىٰ لديك شك في أنّ الطريق الىٰ إصلاح الأمراء والشعوب ، وكذلك الى إفسادهم هو التدخّل في مدركاتهم والتصرّف فيما يستنتجون من محيطهم المؤثر فيهم ، أي في ثقافتهم وصناعتهم وكل روابطهم العائلية والقومية والشعبية وغيرها .

ولايختلط عليك الأمر من أن ذلك ينتهي الى عدم وجود أصل ثابت في أنحاء الحياة وأنواع المعيشة وأنّ الانسان يعيش علىٰ نحو تفكيره ، والتفكير يتشكّل وفق عوامل محيطة به مؤثرة فيه والتي يمكننا ان نسوقها حسب مانشاء ، فالشعوب والأقوام وبالتالي الانسان بنوعه العوبة في أيدي الحوادث الطبيعية أو الواقعة بأيدي بعضهم ، فالانسان لعبة الانسان والأصل هنا يلجأ اليه .

ولكن ورغم صحة كل ذلك تبقىٰ الخلقة والفطرة أقوىٰ الأصول وأركزها ، فكما أنّ الانسان واقع في حدود الطبيعة وقوانينها الكلية لايتمكن من الخروج عنها

---

١) البقرة [٢] الآية ١٣٨ .

ـ كتأثير الهواء والفضاء والماء والغذاء وسائر الطبائع والنواميس الخلقية ـ كذلك هو واقع في اصول روحية وقوانين نفسية تقتني اموراً وتردّ اخرىٰ مثل حبّ العدل وبغض الظلم حين ادراكه الحسن والقبح ، ولايمكن التصرّف في المُدْرَك هذا وتبديله الىٰ العكس ، فانه أمرٌ نظري خَلْقي ومثله غيره ، وان كان يمكن اختلاط الأمر عليه في بعض الأحيان بالتلبيس في الموضوع أو التسويل في النفس ولايمكن ذلك دائماً وكلياً .

وبذلك يتحقّق معنىٰ الصلاح والفساد عينياً واقعياً ويخرج عن كونه معنىٰ نسبياً غير ثابت ، فإن الصلاح هو التطابق مع نظام الخلقة والفطرة ، والفساد هو الخروج عنه ، فيتمّ معنىٰ الاصلاح والإفساد عينياً بالتقرب الىٰ ذلك النظام أو بالإبتعاد عنه .

ثم انك بعد التوجّه الىٰ ماذُكِر والتأمّل فيه تعرف صحة ماهو الشائع من اصطلاح الاصول والفروع وتعرف صحة مانقول : انّ كل أمر فكري لابدّ وأن يُعرف ويُعتقد به فهو أصل من غير اختصاص بعدد من خمسة أو ثلاثة ، وكل أمر لابدّ وأن يُعمل به فهو فرع من هذا المنظار وإن كان من أقوىٰ الأركان وأعظم الأصول العملية، والحاصل : انّ كل فكرٍ وعقيدةٍ وعرفانٍ أصلٌ ، وكل مباشرة وعمل بالجوارح فهو فرع نشأ من أصله .

أصل الأصول :

نعم هناك علل وعوامل أورثت مكانة خاصة لبعض تلك المعتقدات وجعلتها في الصف الأول من الأصول مثل المبدأ والمعاد المحسوس والملموس في كل حركة وكل متحرّك ؛ وأظهر شيء يراه الانسان قبل كل شيء ويحسّه : الحركة ، والكون في غير ماكان أولاً في شراشر الطبيعة وجميع نظم الخلقة من ظواهرها العرضية الىٰ أعماقها الجوهرية ، وكل حركة لابدّ لها من مبدأ ومنتهىٰ ومن علّة وغاية

تبتدئ منه وتختتم اليه ، فتسير سكوناً وكمالاً كما سيأتي الكلام فيه في بحث المعاد ان شاء الله .

المبدأ والمعاد:

البحث عن المبدأ والمنتهىٰ أوّل الأصول التي فكر فيها الانسان من أول ماعرف نفسه ونظر في ما حوله مما أحاطه من أرض وسماء وبرّ وبحر وهكذا ، فيسأل نفسه أن ذلك من أين ؟ والىٰ أين ؟ وبالتالي هو بنفسه غير خارج عن العالم والطبيعة ، فيسأل عن خالقه ، ونهاية خلقته ، والغرض والغاية من وجوده ، فليسا هما اصلين دينيّين في الشرائع الإلٰهية فقط ، بل من أدلّ الأصول وأقواها ، ولابدّ من الكلام عنهما وتأسيس الأصل فيهما قبل البحث عمّا وراءهما من المعارف .

ثم ان الانسان بما انه فاعل مختار ـ كما سيأتي الكلام فيه ان شاء الله ـ يرىٰ نفسه مفتقراً الىٰ نور وهداية ولايكفيه العقل، فيبحث عن نور أقوىٰ وهداية أوضح، وهذه هي الرسالة ، وهكذا البحث عن غير هذه الثلاثة من الأصول حسب الافتقار والأهمية اصبحت من المباحث الأولية في المعارف ، نذكر شطراً من الكلام حولها حسب ماساعدنا المجال ونحن في سجن الطاغوت في مدينة كرمانشاه .

٢٠ / شعبان / ١٣٩٨ هـ . ق

محمد اليزدي

بسم ا الرحمن الرحيم

الفصل الأول :

التوحيد

المبدأ قبل الوحدة :

بعد ان نسلّم بتحقق شيء في الخارج وواقعية أمر في العالم ، فأول سؤال يواجهنا قهراً من غير اختيار : ماهو مبدأه ؟ ولانجد الراحة حتىٰ نصل الىٰ الجواب . وكلما عدّ شيء من مبدأ ، يعود السؤال اليه قهراً حتىٰ ينتهي الى ما بالذات ، أي ما كان هو المبدأ بلا مُبدئ، الأول بلا أول ، وإلاّ فالسؤال باقٍ علىٰ حاله : ما هو المبدئ بنفس ذاته من غير افتقار الى آخر ؟ وهو نفس التحقق وعين العينية الواقعية اذ لاسبيل للعدم اليه ، ويجب تحققه ولايمكن في ساحته العدم .

توضيح في المقام :

اذا قلنا : السماء موجودة ، الأرض موجودة ، وفيها : الجبال موجودة ، الأشجار موجودة ، الحيوان موجود والانسان كذلك موجود ، نجد قضايانا متعددة في الموضوع ولايصلح حمل بعضها علىٰ البعض الآخر ، فلا يصح أن يقال : السماء أرض ، أو الأرض سماء وهكذا ، ويصحّ في الكل انه موجود ، فيستكشف من ذلك اشتمال كل منها علىٰ أمرٍ ما ولأجله يصح حمل الوجود عليه ، وذلك الأمر متحقق موجود في الكل ، به يصح الحمل وهو الوجود والتحقق ،كما يقال مثلاً : زيدٌ عالم ، وعمر عالم وبكر أيضاً عالم، ولايصحّ ان يقال : زيد عمر أو عمر زيدٌ أو بكرٌ ،

ويستكشف من ذلك واجدية كل من زيد وعمر وبكر أمراً أخبر بـه يـصح حـمل عنوان العالم عليهم وهو العلم ، وهكذا في أمثلة اخرىٰ مع الفرق بين مورد البحث والأمثلة بأن المتحقق في المقام نفس التحقق والوجود ، وفي الأمثلة شيء متحقق بالعين والتحقق ، فالذي هو بنفسه ومن نفسه ولنفسه هو العين الخـالص والتـحقق البحت والوجود ، الذي هو الموجود أولاً وبالذات ، وكل شيء وموضوع للقضايا موجود به ثانياً .

الطريقة الحديثة :

هذا كلّه علىٰ طريقتنا السالفة وهي من أقوىٰ الطرق المعروفة باسم : «برهان معرفة المعلول من العلّة دون العكس» فان المعلول لايتمكن من بيان العلّة كما هو بل بمقدار طاقته المعلولية ، والعلّة واجدة لمعلول ، ومازاد لا علىٰ حدة كما سنصل اليه في محله ان شاء الله .

وأما علىٰ الطريقة الحديثة المنتهية الىٰ آخر ماينتهي اليه كل طريق فـنمشي بأقدام الطبيعيين ونبحث عن ما أحاط بنا من الموجودات ونشرع بما يلينا وتصل اليه أيدينا من أشياء كثيرة جامدة أو نامية أو حيّة ، فننتهي بعد التفصيل الىٰ مادة وحياة، والمادة بعناصرها المتعددة المركّبة من الذرات والجزيئيات حـتىٰ نـتصل بـمسألة تبدّل المادة الىٰ القوة وبالعكس والىٰ الحركة التي تقوم بها المادة ولاتخلو عنها، واذا بهم يصلون الى نتيجة وهي : أن أصل المادة المتحوّلة الىٰ صور كـثيرة والىٰ قـوىٰ عديدة ثم التحوّل من بعض الىٰ آخر ، ثابت دائم لاينقص عنه شيء ولايزيد ، واما الحركة والتحوّل الىٰ الحياة فهي من خواص الظروف ولوازم الشروط وآثار الطبيعة ككل حسب القواعد الثابتة ، وقريب من هذا سائر ماتوصلوا اليه من نتائج .

لكن الطبيعين يواجهون هنا بسؤالين :

السؤال الأول : ان هذه المادة الثابتة التي تستند اليها كل القوىٰ ، من أين وجدت ؟ فهل أوجدت نفسها بنفسها ؟ والإيجاد يستلزم سبق العدم بالموجود وواجدية الموجود لما يوجد ، أو كانت أزلية كذلك من غير ايجاد ووجود فقد سلمتم بالمُبدئ بلا مَبدأ ، ولابدّ وان يرجع اليه كل ماهو موجود في شراشر الخلقة حتى العلم والشعور والحياة والإرادة وغيرها ، ويكون في ذاته واجداً لما تعطيها ويرجع اليها فيكون حيّ عالم شاعر ...

وماكان لذاته وبذاته ومن ذاته متحققاً ومع ذلك حيّاً عالماً مريداً شاعراً يستند اليه كل موجود آخر فهو المبدئ الأوّل علىٰ الإجمال ، سمّه ماشئت .

السؤال الثاني : هل انّ الحركة والتغيّر المتحقّق في تلك المادة الثابتة الأصلية الموجب لتشكّل الصور والقوىٰ وتحقّق المواد والعناصر الىٰ الذرات وسائر الموجودات السماوية والأرضية بمبدئها الىٰ غايتها .. من عامل ذاتي هو عين تلك المادة الأصلية ؟ أو من خارجها ومن مؤثر يؤثر بمشيئته وارادته اذا شاء ؟ فان كان من قبل ذاتها بنفس ذاتها الأصلية من غير تأثر ، فاذاً لابدّ وان لاينفكّ عنها ، فان الذاتي لايعلّل ولايعفى ولاينفكّ ، فلم يكن التشكل بتلك الأشكال حادثاً مسبوقاً بالعدم ، ولم يكن زمان لم تتشكّل فيه تلك المادة الأصلية بأشكال الموجودات ، والحال ليس كذلك ، وانتم تسلّمون الحدوث وسبق اشكال العالم وصور المواد والقوى بالعدم وحتى تعيين التأريخ وتشخيص الزمان لكلّ موجود ، هذا أوّلاً . مع انّ هذه المادة الأصليةالمجبولة بالحركة والتغيّر في الذات مقهورة ومحكومة بتلك الطبيعة، ولا تتمكّن من التخلّف عنها . فما العلّة في ذلك ؟ وما الذي جعلهاكذلك ؟ فإن لم يكن غيرها مؤثراً فيها وكانت هي الجاعلة لنفسها وكان التحقّق والوجود من قبل نفسها ، فلِمَ جعلت نفسها هكذا مقهورة لقانون ومغلوبة لحكم ، ومن أين ذلك القانون والحكم القاهر عليها ؟ اذاً فالمؤثر فيها الجاعل إيّاها كذلك ، المؤثر في سائر

المراحل، الجاعل كلّ مرحلة علىٰ نظام وقانون ، الحاكم علىٰ الكل ، الجاري أمره في الكل .. هو الله الواحد الأحد .

وان كان العامل من خارجها وغير نفسها ، المؤثّر فيها ، فالأمر أظهر وانّه كائناً ماكان ولو لم نعرفه ولانتمكّن من عرفانه بذاته فهو الله المبدئ، الأوّل بلا أول .

آخر الكلام:

فان قلت : معنىٰ القضية الذاتيّة انها لاتحتاج الىٰ ايجاد آخر غير ايجاد نفس الذات وان ذاتي كلّ شيء هو قوامه وشيئيته ، فمثلاً ان النطق ذاتي الانسان ، والحسّ ذاتي الحيوان ، والتحيّز ذاتي الجسم ، ولايعلّل كذلك الحركة ذاتي المادة الأصلية ولايحتاج الىٰ العلّة ، فانّ المادة قوامها بالحركة .

قلت :

أوّلاً : ان الكلام في المادة الأصليّة السابقة علىٰ تلك المواد والعناصر والقوى الموجودة فيها ، وهو الظاهر من الكلام في المادة التي لم تكن عنصراً خاصاً أو قوّة خاصة وتبدّل اليها وتتبدل بعد ، وانّ ملاك تبدّلها الىٰ تلك المواد والعناصر وتغيّرها الىٰ تلك الصور والقوىٰ المرتبطة في العالم هو الحركة العارضة عليها ولم يكن من ذاتها ، وإلاّ كان العالم بتلك المواد والعناصر قديماً . هذا أوّلاً .

وثانياً : معنىٰ أن الذاتي لايعلل ، صحيح بكليتها ، فانّ النّطق للانسان وكذلك الحسّ للحيوان والتميّز للجسم غير مجعول ، بل والحركة للمادة ، إلاّ أنّ الوجود والتحقّق للشيء والحصول والعينية له قد يكون وقد لايكون ، فانّ الانسان مع انّ النطق ذاتي له قد لايكون موجوداً ، واذا صار موجوداً فهو ناطق وهكذا الحيوان والجسم والمادة بالنسبة الىٰ الحسّ والتميّز والحركة ، ومايعطيه الوجود ويورث تحقّقه لم يعطهِ إلاّ الوجود والتحقّق وشيئته الٰهية لاتنالها يد الجعل والمسألة وان عادت الى الطريقة القديمة الفلسفية ، إلاّ أنّ الكلام اذا انتهىٰ الى المقام وهو معرفة

الحقيقة في الطبيعة والمادة يصير فلسفياً بالطبع .

وحاصل الكلام : انّ المفروض مبدأ أولياً ومنشئاً بدائياً ان كان مادة موجودة لها خواص وتحكمها قوانين فهي مقهورة محكومة لتلك الخواص وبتلك القوانين ، وذلك القهر وتلك الحكوميّة موجودة ، والموجود اذا لم يكن من غيره مقهوراً وكان تحقّقه من ذاته فهو تام مطلق قاهر ، والمادة المفروضة مقهورة للحركة وقوانينها مع أنّ الحركة عارضة عليها وحادثة فيها فلم تكن مبدأ بلا مبدئ .

اذاً فالمبدئ الأوّل بلا أوّل هو الموجود المطلق القديم القاهر علىٰ كل شيء .

ذات المبدئ لاتُعرف :

ولايتمكّن الانسان من معرفة ذلك بذاته ، فانّه ليس شيئاً كالأشياء ولايخلو من ارادته وقهره وسلطته شيء و ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] ، والإنسان شيء كالأشياء وموجود كسائر الموجودات ولكن ينتهي معرفته بأيّ طريق الىٰ وجوده الحاكم وسلطته القاهرة فوق عباده المحيط بكلّ شيء .

أضف الىٰ ذلك أدلّة النّظام وغيره ، فانّ الموجود المركّب من أشياء كلّما ازداد أجزاؤه ضعف احتمال التّصادف في تتاليها حتىٰ التركيب الىٰ ان ينتهي الىٰ الصفر ودونه ، فكيف بالعالم الحاصل من أنظمة عجيبة ؟ بل الكلام في أوّل حادث في العالم حسب تركّب ذرّاته من البروتونات والألكترونات التي تشكّل الجزيء والجسم وهكذا .

ولنختم الكلام في أصل المبدئ هنا ، وتفصيله في محلّه .

---

١) الشورىٰ [٤٢] الآية ١١ .

التوحيد

التّوحيد علىٰ وزن : (تفعيل) : من وحّد ؛ أي جعل الكثير واحداً بالربط بينهم أو التركيب حتىٰ تحقّق الشيء الواحد الآخر . وكل واحد تحقّق من وحدات كثيرة عينية فهو أقوىٰ من وحداته . فنرىٰ كل ذرّة مركّبة من جزيئات وكل قطعة مركّبة من ذرّات وكل جسم مركباً من قطعات ، وهكذا الىٰ العالم الحي المتحرك الفعّال الباقي لا بصوره وخصوصياته ؛ هذا علىٰ الإجمال .

ليست الوحدة هنا رياضية ولا هندسية :

ولنقدّم يسيراً من الكلام في الواحد والوحدة وهو انّه قد يقال : واحد ، إثنان، ثلاثة .. الىٰ آخره من الأرقام الرياضية لايمنع إنطباقه علىٰ شيء ، بل يكون في مرحلة المفهوم والمعنىٰ مطلقاً غير مقيّد بأيّ شيء ، وهذا هو العدد راجع الىٰ عالم المفاهيم الذهنيّة لايرتبط بالعين والتحقّق بشيء .

وقد يقال : الواحد ، الاثنان ، الثلاثة ، الأربعة ... الخ من المفاهيم ، وهذه المفاهيم أيضاً وإن كانت كلّية لاتمتنع من الإنطباق علىٰ كثير من الأشياء ، إلاّ انّها تحكي عن مصاديق مشخّصة ومعانٍ معيّنة كالواحد من كتاب أو قلم أو صفحة أو انسان أو حيوان أو أيّ شيء آخر محدّد بحدود هندسيّة فمثلاً : قلم واحد يضاف اليه قلم آخر يصيران اثنين ، والثاني منها ثان . وهنا عدد محدود . فللعدد وحدة رياضيّة وللمعدود وحدة هندسية ، وان كان يمكنك أن تجد في عدد واحد وحدات كثيرة ، فانّ العشرة أو العشرين عدد بنفسه يشتمل علىٰ وحدات كثيرة لابحدودها .

وفي المقام تعبير ثالث ، يقال : انّ الإنسان نوع واحد أو العلم حقيقة واحدة ، وللمادة طبع واحد وهكذا . فانّك لاتحدّد المعدود بالوحدة محدّداً هندسياً ، فانّ الانسان في الخارج والعين موجود بأفراد كثيرة توجد وتنعدم تقل وتكثر ، ومع ذلك فان الطبيعة الباقية الجارية في تلك الأفراد في كلّ زمان ومكان واحدة موجودة عيناً لا في الذهن ، فان الإنسان حقيقة واحدة في الخارج لا ذهناً وتصوّراً كسائر الطبائع الكليّة كما سنصل اليه في محلّه ان شاء الله[١] .

الوحدة في المقام :

اذا عرفت هذا نقول : أمّا علىٰ طريقتنا في اثبات المبدأ والإنتهاء الىٰ انّه الوجود البحت ونفس التحقّق والعينيّة ، فالوحدة ظاهرة المعنىٰ وانّه ليس رياضيّاً ولا هندسيّاً بل ولا طبيعيّاً نوعياً أو جنسياً وعلىٰ الإصطلاح مقوليّاً ، فانّ طبع التحقّق والعينيّة والوجود ليس مقولة عرضيّةً ولا جوهريّةً وكل مقولة ومهيّة به يوحّد ويصير مقولة ، فهو فوق الجوهر والعرض ، والوحدة العينيّة ، وعينية الوحدة ، وليس كمثله شيء ـ فانّ كلّ شيء يصير به شيئاً ـ وبه قوام كلّ شيء واليه يستند كلّ شيء ، ويفتقر كلّ شيء ، وهو الغنيّ عن كلّ شيء ، ليس اِلاّ واحداً ، ولايمكن أن يكون إلاّ واحداً ، وهو نفس حقيقة الوجود وعين التحقّق والعينيّة علىٰ الإطلاق .

اذاً فالوحدة الحقيقية قريبة ممّا يقال : العلم واحد في زيد وعمر وبكر . وحقيقة واحدة توجب صدق القول بأنّ زيداً عالم وعمراً عالم وهكذا ، فالحقيقة الواحدة هي الملاك في قولنا : العقل موجود، والنفس موجودة، والطبع موجود ، وكذلك كل مرتبة من المراتب . والحدود غير نفس الحقيقة علىٰ التّفصيل في محله .

---

١) عند اثبات أنّ الكلّي الطبيعي موجود في الخارج .

وأمّا علىٰ الطريقة الحديثة ؛ فالمبدئ الذي يتّكئ عليه كلّ مواد العالم وصور عناصره وكذلك قواه بأقسامها الكثيرة بحيث لم يكن شيء منها عينه ونفسه بل يتحصّل منه ويعتمد عليه حتّىٰ العلم والحياة والإرادة وغيرها ممّا توجد في العالم، فهو أيضاً واحد غير رياضي وغير هندسي بل غير نوعي أو جنسي ، فانّ الأنواع والأجناس ممّا يتحصّل منه ويتّكي عليه .

وكيف كان فهو الواحد ؛ في العين الأحد ،كذلك فلايضاف اليه آخر مثله فانّه ليس كمثله في العين شيء ، الفرد ، الوحيد المنحصر بنفسه ، الصمد ، المملوء الواجد علىٰ حدّ النهاية ـ أي لا حدّية له ـ فانّه يعطي كلّ شيء ، ومنه يتحصّل كل حصول ، والمعطي لايمكن ان يكون فاقداً ، الذي لم يلد شيئاً وولداً ، حتّىٰ يكون مثله ومن نوعه ابقاء له كما في كلّ توالد ، ولم يولد هو من شيء غيره حتىٰ يكون منه وعنه وبه بل هو بنفسه هو ، وعينيّته نفس هويته ، وهويّته نفس عينيّته الثابتة الأزليّة ، ولم يكن له كفواً ومماثلاً فانّه اذا كان كذلك فانّه هو ، اذاً فهو أحد .

الصفات الذاتية عين المبدئ :

وأنت بالتأمّل والدقّة فيما ذكر، تعرف بالوضوح معنىٰ الصفات ـ لاسيما الذاتية منها مثل العلم والحياة والقدرة والإرادة .. وانّها علىٰ معانيها الشاملة الكليّة من حضور نفس المعلوم لدىٰ العالم ، وسلطته علىٰ المعلوم بالواجدية ، وفاقديّة المعلوم وافتقاره اليه في كلّ آن وجوداً وبقاءً ، وعدم محدوديته بحدّ وشيء ، فهو يفعل مايريد ، بل تعرف أنّ كل صفة عين الأخرىٰ ، وكلّها عين الذات بحسب مرتبة الذّات والتعدّد حسب مراحل التجلّي علىٰ التّفصيل في محله .



علىٰ ان الانسان لايحتاج لمعرفة الخالق المبدئ لتلك الابحاث ، بل يجد من

نفسه ذلك ويرىٰ آياته الكثيرة وعلائمه الوافرة في نفسه وفي السماوات والأرض كما أشار اليه تعالىٰ في قوله: ﴿ **سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّن لهم أنّه الحق** ﴾[1]، ولذلك ترىٰ الآيات الكثيرة في الكتاب الكريم الراجعة الىٰ البحث لم تكن إلاّ قلائل منها في صورة البرهان والاستدلال والباقي في صورة الإلفات والتنبيه كما فصّلنا ذلك في رسالتنا: «**أُسس الايمان في القرآن**» فراجع.

الفصل الثاني:

النبوّة

النبوّة العامة:

الانسان يفتقر الىٰ رسول:

تارة يقع الكلام في أصل افتقار الانسان بنوعه ـ كائناً من كان في أي زمان ومكان ـ الىٰ مسألة الرسالة والوساطة بين الله تعالىٰ وبين عباده لبيان الحق وتوضيح السبيل ـ وهو ما يعبّر عنه بالرسالة والنبوّة العامة من غير تعيّن في شخص رسول معين ـ واخرىٰ يقع في أنّ ذلك الرسول اللاّزم اتّباعه من هو، ويعبّر عنه بالنبوّة الخاصّة. فالكلام يقع في فصلين، الأول: في الرسالة العامّة، والثاني: في الرسالة الخاصة.

امتاز الانسان بالإختيار:

الانسان كسائر مواليد العالم بل مثل كلّ مانرىٰ في عالم المادة مقهور للقواعد ومحكوم لقوانين الخلقة، والكلّ علىٰ نظام دقيق خاص يتحرّك الىٰ غايته وغرضه،

---

١) فصّلت [٤١] الآية ٥٣.

وبعبارة اخرىٰ : كلّ موجود تراه في هذا العالم مجبور ملزم في تحقّقه وتشكّله وتحرّكه في الوصول الى غايته ـ من أعظم الاجرام العلوية في السماوات من الشموس والأقمار والنجوم الىٰ أصغر الأجزاء ، والجزيئات في الأرض ـ فليس لشيء ممّا في السماوات والأرض أن يتحقّق اذا أراد أو يفعل اذا أراد ويترك اذا أراد بل عليه طي طريق بوجه عيّن له في السرعة والبطء من غير امكان التخلّف يميناً أو يساراً ، فالشمس عليها الإضاءة والحركة والجاذبية وتأمين شروط الحياة في أرضنا هذه مثلاً، والأرض عليها الدوران حول نفسها وحول الشمس ، والقمر كذلك عليه الحركة حول الأرض ولايمكن لهم التخلّف عمّا عليهم رأساً أو في وجهة .

﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون** ﴾[١] ، ﴿ **ولله جنود السماوات والأرض** ﴾[٢] والجندي ليس له إلاّ اطاعة الأمر ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾[٣] فلاشيء في الحياة له خيار في ترك أو فعل حتىٰ الانسان تراه يتكون حال التقاء نطفة الرجل وبيضة المرأة في الرحم من غير ان تكون لهما يد في هذا التلقيح الحاصل ، بل هو الجري علىٰ قواعد حسّاسة دقيقة من تركّب النطفة واختلاط الماءَين ﴿ **هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾[٤] ، ثمّ ينشأ الجنين لا علىٰ اختياره بل تحت مئات من الأحكام والقوانين المعبّر عن الجميع بالمحيط . وهكذا يتولّد في شروطه الخاصّة ﴿ **الله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لاتعلمون شيئاً** ﴾[٥] ، ﴿ **وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾[٦] ثمّ يكبر شيئاً فشيئاً من مرحلة الطفولة الىٰ الشباب وبلوغ الرشد وتمامه ، ثمّ الكمال

---

١) يس [٣٦] الآية ٤٠ .
٢) الفتح [٤٨] الآية ٤ .
٣) الأعراف [٧] الآية ٥٤ .
٤) آل عمران [٣] الآية ٦ .
٥) النحل [١٦] الآية ٧٨ .
٦) المؤمنون [٢٣] الآية ٧٨ .

والشيخوخة ثمّ الموت ، كلّ ذلك من غير اختيار بل علىٰ قواعد كثيرة وأنظمة عديدة في العالم المحيط به الحاكم عليه كضربات قلبه وجريان دمه وحركات أجهزة التنفّس والجذب والدفع وغير ذلك من عوامل الطبيعة كما ترىٰ ذلك في كل جماد ونبات وحيوان...

نعم انّ الإنسان الموجود في الخارج المحكوم بالقواعد الطبيعية ، له أن يفعل أو يترك شيئاً ما في أفعاله من الأكل والشرب والمشي والجلوس والتعلّم والتكلّم وأمثاله ممّا يقال له : (الأفعال الإختيارية) ، ولا يكون له معنىٰ الاختيار إلاّ في حالة الاختيار ولحظة الانتخاب ، وإلاّ فالمنتخب لم يكن قبله في اختياره ، وبعد الاختيار والعمل كذلك لايكون باختياره بل يؤثّر فيه اجباراً سواء كان له أو عليه .

وكيف كان فالانسان مختار في الجملة ، وهو الذي يقع في حياته علىٰ طريقين أو طريق فقط وهو الذي له أن ينتخب أحد السبيلين أو السبل ، فانّه واقع في العالم الكبير المربوط كلّ أجزائه بعضها ببعض المؤثّر كلٌّ في الآخر والمتأثّر كلّ عن الآخر كذلك ، فاذا وقع علىٰ نقطة يمكن فيها اختيار أحد الأفعال أو الأقوال أو غيرها ، فله أن يختار أيّها شاء ولكنه بعد اختياره محكوم بآثار المختار علىٰ نظام كلّي حاكم . وهذه الحالة للانسان فقط وهو الفاعل المختار في الجملة علىٰ ماهو الظاهر المحسوس لكلّ انسان ، وليس هنا مقام البرهان في مسألة الجبر والاختيار ، وأنّ الإنسان لايكون مجبوراً في تلك الأفعال الإختيارية علىٰ الإطلاق ولايكون مختاراً فيها علىٰ الإطلاق بل هو مجبور في اختياره مجبول هكذا ليس له في اختياره التخلّف عن نظام الخلقة وما جعله عليه خالقه من كونه مختاراً له اختيار الأطراف بحكم الخلقة الحاكمة عليه وعلىٰ الأطراف ، فلا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين وهو أصدق مقال للامام الصادق عليه السلام (١) في ذلك المقام والتفصيل في محله .

---

١) الكافي : ج ١ ص ١٦٠ ح ١٣ .

هنا سؤال :

لعلّك تسأل : لِمَ جعل الإنسان هكذا ؟ ولو كان كسائر أجزاء العالم ملزماً مجبوراً في حركاته وسكناته وتطوراته وتكامله ، فكيف كان ؟ بل لعلّك تتصوّر أنّه لو لم يكن مختاراً ، لكان خيراً له في طيّ طريقه الىٰ الخير والحق من غير زلّة وكفر كما في سائر موجودات العالم الواصلة الى الغايات التي خلقت لها ، والإنسان كثيراً مايكفر ويضلّ عن الطريق فيبعد عن الهدف الذي خلق من أجله ؟

الجواب :

والجواب هو الذي أُشير اليه في آخر السؤال بأن كلّ موجود خلق لغاية وغرض ، والطريق الىٰ كل غاية غير الطريق الىٰ الآخر ، وكذلك حدّه وقانونه يختلف؛ وبعبارة أصح : الإلزام والإجبار يساوق المحدودية ، وانتهاء الطريق الىٰ شيء يتضمّنه القانون والحدّ ، وغاية خلق الإنسان والغرض من فطرته هو الوصول الىٰ عالم لا نهاية له ، ولا طريق الىٰ ذلك العالم إلاّ بالاختيار ، فانّه لو لم يكن كذلك لكان يوجد ويتكامل وينعدم في تلك الحدود والنُّظم المادية غير الخالدة ولم يكن له سبيل الىٰ عالم الخلود ، فأعظم نعمة أعطاها الله تعالىٰ للإنسان هي انفتاح باب الخلود والأبدية له ، وجعله بحيث كان له الورود الىٰ ذلك العالم وباب ذلك هو الإختيار والإنسان بما انّه مختار يمكن له أن يطيع ويؤمن ويعمل حتىٰ يصل الىٰ الجنة الخالدة والرضوان الأعظم ، ويلازم ذلك تخلّف بعض الأفراد وعصيانهم وسقوطهم عن الطريق أو انتهائهم الىٰ خلود النار وعذابها أعاذنا الله منها . وأنت تعلم أنّ ترك خير كثير لأجل شرّ قليل هو قبيح جداً يمتنع علىٰ الفيّاض المطلق تعالىٰ ، وانتهاء أفراد من الإنسان الىٰ الأبد ووصولهم الىٰ خلود الرضوان لايقابله في الخير شيء ، وكثرته علىٰ حدّ لايعطيه كلمة الكثير فكلّ مايلازمه طبعاً من خسران الأفراد ولو كانت أعدادهم كبيرة فهو قليل ، وعليه فأعلىٰ ميزة للانسان هو الاختيار .

الخير في أحد السّبل :

ومن المعلوم أنّ الانسان اذا وقف قبال أفعال متعدّدة وطرق متكثّرة وكان يتمكّن من اختيار أيها شاء فلابدّ وأن يختار وينتخب ماهو بصلاحه أو أقرب الىٰ صلاحه ، وكثيراً ماتكون الطرق متناقضة متضادة ولايمكن ان تكون نافعة صالحة ؛ وعندئذ لابد وأن يكون للانسان بعد فضيلة الاختيار من أمر آخر يعرف به الصلاح عن الفساد ويشخّص الخير عن الشرّ ، وإلاّكانت خلقته ناقصةً دون الحيوان والجماد ، فان غيره يمشي علىٰ طريق الهداية الىٰ غايته النهائية عملاً بما هداه الله تعالىٰ في تقدير ممّا قال : ﴿ والذي قدّر فهدىٰ ﴾[1]، والانسان كثيراً مايقف في طريقه قبال أمور وطرق لايعرف الحقّ والخير منها وهو حيران ، فلو لم يكن له مصباح هداية وسائق خير ، فكثيراً مايقع في ضلالة وخسران من غير تقصير ، ولذلك أكرمه اللّٰه تعالىٰ بالعقل وأعطاه قوة الادراك والتّشخيص ، وبفضله شرّفه بنور يتمكّن أن يرىٰ الأشياء بسعتها ونتاج الأعمال قبلها ، فينتخب مايراه صلاحاً ويعمل وفقه ، فبالعقل يتمّ خلق الإنسان ، فالإنسان هو العاقل المختار الذي يعرف الخير من الشرّ والحقّ من الباطل بعقله وباختياره ينتخب مايشاء ، وتساوي قيمته ما اختار .

الأمانة الإلٰهية :

وفي المقام يبدو هنا أمر آخر مهم وهو امكان الأمر والنهي وصحة التكليف ، فانّه لايصحّ الأمر بما يأتي بالمأمور به قهراً أو من غير اختيار ، أو النهي عمّا يتركه اجباراً ولايمكنه الإتيان به ، والعالم كما عرفت مقهور مجبور في حركاته وتحوّلاته ، فلايصحّ أمر الشمس بالإضاءة أو الحركة ولا نهيها عنها ، وكذا الأرض والقمر وكذلك الحجر والمدر والشجر وكل ماترىٰ في الطبيعة فهي عاملة علىٰ الطبع بالإلزام فلا يصح أمره بعمله أو بغيره أو نهيه عنه أو عن غيره ، فانّه لايقدر ولايتمكّن حتىٰ على

---

١) الأعلىٰ [٨٧] الآية ٣.

فعله، ولعلّ ذلك هو المراد من قوله تعالىٰ : **﴿إنّا عرضنا الأمانة علىٰ السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انّه كان ظلوماً جهولاً﴾**[١]، فانّ الذي ردّته السماوات والأرض ومافيهما وما بينهما ، هو الذي قبله الإنسان حسب طبعه وخلقته وهو التكليف والأمر والنهي ، وبهذا الملاك يصحّ للشارع المقدّس ان يقول له : افعل أو لاتفعل ، فانّ الانسان كما عرفت هو وحده الذي يصحّ تكليفه لأنّه مختار ، فكما يأتي منه الفعل كذلك يأتي منه الترك ، وهو قادر علىٰ كلّ منها ، وأمّا غيره ممّا في العالم السماوي أو الأرضي حتىٰ الجبال بعظمتها ، فلا يعقل الخطاب والتّكليف بحقها ؛ لعدم القدرة . ومن المعلوم ان القدرة شرط التكليف ، ولذلك لايكلّف غير المقدور أيّ لايصحّ التكليف بغير المستطاع .

ضرورة الهادي:

وعندئذ : الانسان فقط هو الفاعل المختار العاقل المقتدر يفعل مايريد وينتخب لفعله مايعقله ويرىٰ فيه مصلحته ، وبذلك يصل الىٰ النهاية المطلوبة والغاية من خلقه ؛ هذا اذا كان في استطاعة العقل لوحده ان يرىٰ كل مافيه الصلاح ويشخّص كل مافيه الفساد ، مع انّه كثيراً مايقف العقل قاصراً عن ذلك ولايعلم مافيه صلاحه أو فساده ، خاصة، وليس امتداد الانسان من تولّده الىٰ موته ، بل منه الىٰ مالا نهاية ؛ فربّ عمل فيه صلاحه بالنسبة الىٰ ما بعد هذا العالم وهو لايعلم ؛ وبعبارة أوضح : حيث انّ الانسان جزء من هذا العالم وبالطبع فهو يتأثر به ويؤثّر فيه بواسطة أعماله الاختيارية في الجملة ، فلايمكن له ان يعلم صلاحه كاملاً علىٰ حقيقته أو مافيه فساده كذلك ، إلاّ بعد العلم بالعالم بأجمعه والإحاطة بكل تأثير وتأثّر حتىٰ يصحّ الحكم بأن هذا فيه صلاح الإنسان علىٰ الإطلاق أو فساده كذلك ؛ بمعنىٰ انّ معرفة العقل حتىٰ فيما له ذلك نسبي لا مطلق ومثل ذلك العلم المطلق والإحاطة التامة لا يكون إلاّ لخالق العالم وفاطر السماوات والأرض .

---

١) الأحزاب [٣٣] الآية ٧٢.

النبوّة:

اذاً فلاسبيل الىٰ معرفة الصلاح والفساد كما هو إلاّ بعلم الله تعالىٰ واحاطته ، وخلق الانسان وجعله مختاراً في طريقه مع عدم القدرة على معرفة كل مافيه صلاحه وفساده كما هو ـ وان كان يعرف شيئاً منه في الجملة ـ اغراء بالجهل واهمال في وصوله الىٰ غرضه المخلوق له ، وهذا نقص ؛ هذا من جهة ، ومن جهة اخرىٰ حيث لايتمكن كلّ انسان من أن يتّصل بعلم الله تعالىٰ ويأخذ منه ماهو الصّلاح والفساد ، فلابدّ وان يكون في نوع الانسان من يقتدر علىٰ ذلك الإتّصال والأخذ حتىٰ يرتفع النقص .

ولانعني بالنبوّة العامّة إلاّ هذا ، أي لزوم وجود أفراد يتّصلون بعلم الله تعالىٰ ويأخذون منه بالوحي مافيه الخير والصلاح ويعطونه الىٰ الناس حتىٰ يتمكّن الإنسان من اتّخاذ طريق ينتهي الىٰ ماهو الغرض من خلقه . فوجود الأنبياء واجب في نظام الخلقة وتمامه .

فالنبوّة في نوع الانسان كالعقل في شخصه وفرده ، فكما انّ فرد الانسان بلا عقلٍ ناقصٌ مهملٌ ، كذلك نوعه بلا نبوّة لما عرفت ، وهذا هو مفاد الحديث عن الامام الكاظم عليه السلام : **«انّ للّه علىٰ الناس حجّتين : حجّة ظاهرة ، وحجّة باطنة ، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ؛ واما الباطنة فالعقول»**[1] ، ومعناه : انّ العقل نبيّ الفرد والأنبياء عقول المجتمع ، فالأنبياء يجب أن يكونوا في نوع الانسان وجوباً طبيعياً متمّماً للخلقة ومكملاً للنظام، وعلىٰ الخالق الحكيم ـ بمقتضىٰ حكمته ـ ذلك.



١) وسائل الشيعة : ج١١ ص١٦٢ .

الأنبياء ﷺ كيف يكونون ؟

اذا عرفت ممّا ذكرنا ضرورة وجود النبيّ والرابط بين الناس وخالقهم ، حتىٰ يعرفوا الطريق الىٰ الغاية ويطمئنوا ، فلابدّ وأن نعرف مهام وأوصاف الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وانّهم كيف يكونون .

قوّة العقل :

الانسان الذي كان ضرورة وجوده ولزوم تحقّقه في نوعه لقبول أمر عظيم والعمل بعهده الثقيل[١] ـ وهو أخذ الأحكام من الله تعالىٰ بالوحي واعطائها للناس وعباد الله بتبليغها اليهم ـ فأوّل مايلزم أن يكون واجداً له : القدرة علىٰ الخروج عن تلك العهدة ، القدرة علىٰ الاتّصال بمبدأ العالم وعلم المطلق وعمق الوجود بالوحي، وعلىٰ الاتّصال بالناس علىٰ اختلاف مداركهم ومستوياتهم ضعفاً وقوّة ؛ وهذا عندنا من أعظم حالات الانسان وأكبر أوصافه ، ولايتمكّن كل أحد ان يصل اليه أو يكسبه، بل علىٰ الله تعالىٰ الخالق الحكيم ان يخلق افراداً علىٰ وجه يكون لهم ذلك القدر والسعة بحيث يتمكّنون من الارتباط بمبدأ العالم من طرف ، والاتّصال بمختلف أفراد الانسان من طرف آخر والرّوح الواسعة علىٰ هذا النطاق لاتتعلّق بكل جسم ولا تتحصّل في كل جوّ ماديّ ؛ فعلىٰ الله تعالىٰ مراقبة أنظمة الخلقة في اخلاف الانسان نسلاً بعد نسل ، والمحافظة علىٰ الشرائط الطبيعية اللازمة لتحقّق مثل هذه الروح في زمن خاص تتميماً لنظام الخلقة وتكميلاً له ؛ وبعبارة اخرىٰ أجمع : النبي بوجوده قطعة من نظام التكامل ومعلّمه لا أنه ناتج منه ، يأخذ عن النظام ويردّ اليه كسائر أفراد العائلة البشرية من العلماء بل النوابغ مثلاً ؛ والىٰ ذلك السرّ أُشير في جملة من (الزيارات) : «أشهدُ أنك كنتَ نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة لم

---

١) «إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً» . (المزمل [٧٣] الآية ٥)

تنجّسك الجاهلية بأنجاسها»[1].

فليس لكل أحد ان يتكامل الىٰ النبوّة بل النبي هو أكمل الأفراد وأوسعهم روحاً ، جعله الله تعالىٰ نبياً وأعطاه تلك القدرة والتمكّن وسعة الروح وشرح الصدر ومكّنه من أخذ الوحي عن الله تعالىٰ وتبليغه الىٰ عباده . فالنبي - ﷺ - نبيّ لا عالم ولا نابغة وإنّما واسطة ، أمين في أخذ الوحي ، وأمين في ردّه ، وهو أهل في تحمله وفهمه وبيانه وليس ساعي بريد يحمل رسائل فقط . ألا ترىٰ انهم لم يكونوا من العلماء المحصّلين من معهد أو لدىٰ عالم ولاسيّما نبيّ الاسلام الأميّ الأعظم الذي ماكان يخط بيمينه حتىٰ لايرتاب المبطلون، فالنبي أعظم روحاً وعقلاً من غيره .

العصمة :

الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معصومون ولابدّ أن نتكلم شيئاً في حقيقة العصمة ومعناها ثم في تحقّقها لهم ، فالعصمة هي ارتقاء مستوىٰ الروح والنفس الىٰ حد لايذنب صاحبها فيه ، بل لايفكر في الذنب ، فهو عنده أمرٌ دان لايعده شيئاً يستحق التفكير .

وكل انسان معصوم بالنسبة الىٰ ذنب دون ذنب ، أي كلما ارتفعت الروح عظمةً وارتقت النفس صار الشخص معصوماً بالنسبة الىٰ مادونه وكلما ارتفع الذنب تنخفض النفس وتزول عصمتها ويحتمل ارتكابها الخطأ . فالانسان المتوسط العادي المترفع عن سرقة مال قليل لايُعتنىٰ به معصومٌ لايسرق ولايتصوّره ، وأمّا بالنسبة الى مال كثير فلعلّه ليس كذلك . فيختلف كل انسان بالنسبة الىٰ الذنوب ارتفاعاً وانخفاضاً في النفس أو في الذنب . وحقيقة الأمر ان عدم ارتكاب المخالفة هو لتدنيها وسمو

---

١) زيارة وارث .

النفس ، لا عدم القدرة علىٰ التخلف بأن يكون المعصوم غير متمكّن علىٰ الخلاف، مجبوراً علىٰ الطاعة ، فانّ ذلك ليس بفضيلة .

اذا عرفت ذلك ، فمن المعلوم ان الانسان الذي هو واقع في أعلىٰ المستويات الروحية وأرفع مقامات الانسانية ممن يقدر بذلك علىٰ اتّخاذ الوحي من المبدئ الأعلىٰ يقع كل ذنب وتخلّف دون مقام نفسه وتكون نفسه فوق كل تخلّف وعصيان، وبذلك يكون معصوماً علىٰ الاطلاق . فالعصمة ـ كما عرفت ـ من لوازم نفس النبي وصفات روحه علىٰ الاطلاق ، أي هو معصوم بالنسبة الىٰ كل ذنب طبعاً ، حتىٰ انه لايتصوّر المخالفة والعصيان .

هذا مع انّه لو لم يكن معصوماً فانه لايتمكّن من تبليغ أحكام الله تعالىٰ الىٰ عباده ، ولايطمئن به أحد لاحتمال التخلّف في كل مايقول فيلغي الأمر كما هو ظاهر .



التمكّن من الاعجاز :

ثم ان علىٰ الانسان الذي لابدّ من وجوده في تمام النظام وكمال الخلقة ـ لاسيما في خلق نوع الانسان ـ علىٰ حدّ لوزم خلق العقل لفرده .. الانسان الذي هو في أرفع مستوىٰ وأعلىٰ منزل يمكنه من أخذ الوحي ثم تبليغه الىٰ العباد ـ ولذلك كانت له العصمة ـ .. الانسان الذي يمكنه بعد أخذ الوحي ، الاتّصال بأفراد العباد علىٰ اختلافهم في الادراك والفهم .. الانسان الذي هو كذلك ثبوتاً ، عليه ان يثبت ذلك للناس اثباتاً . فانّ مجرّد ادّعاء مقام لايكفي للقبول ولا يجب علىٰ الناس التسليم والإطاعة ، فلابدّ وان يكون له آية وعلامة ، والآية لابدّ وأن تكون علىٰ وجه تُثبت

تلك الحالات ، له وتورث اليقين والاطمئنان علىٰ انّ هذا الانسان يقتدر علىٰ الاتّصال بمبدأ الوحي واقعاً ، وانّه صادق في دعوته . وتناسب الآية والعلامة مع ذي الآية المدعي يقضي عليه ان يأتي بأمر لايمكن الاتيان به بغير القدرة الكاملة الالٰهية من وراء الطبيعة ، وهو أن يأتي بأمر يعجز عن اتيانه كل انسان حسب القواعد الطبيعية وذلك هو المعجزة ، أي ايجاد أمر وتحقيق موضوع ليس اليه سبيل من الطرق الطبيعية ونواميس الخلقة العادية بل ينحصر الوصول اليه بقدرة الله تعالىٰ المحيطة بكل شيء من وراء تلك الطرق .

الفرق بين المعجزة والسحر :

فالإعجاز عمل الٰهي يقع في الخارج علىٰ أرض الواقع علىٰ يد النبي لايقدر عليه أحد عن طريق الوسائل المتداولة لدىٰ عامة الخلق ـ ولو بأدقّها ـ إلاّ عن طريق فوق الطبيعة أي قدرة الله تعالىٰ . وبمثل هذا العمل المسمّىٰ بالمعجزة يثبت النبي ارتباطه بالله تعالىٰ وانه في رعايته تعالىٰ مباشرةً.

فان قلت ان هنا أعمالاً لايقدر عليها إلاّ الأوحدي من الناس مما يأتي بها أرباب العلوم الغريبة والمرتاضون ـ من سحر وشبهه بل وعن طريق بعض العلوم ـ من التصرف في الاشياء ؛ فأين هو اذن الفرق بينها وبين المعجزات التي أتىٰ بها الأنبياء عليهم السلام .

قلت : الفرق ظاهر مما ذكرنا في طبيعة مهيّة الاعجاز وماهيته ، فانه عمل الٰهي لايتحقّق الاّ بالقدرة العليا ، وغير ذلك مهما كان غريباً يكون من الطرق الطبيعية والوسائل العادية يتمكّن منه كل من عرف القانون المسيطر علىٰ حركة الأشياء في الطبيعة . فما يعمله المرتاضون أو مايعمل به السحرة أو علماء العلوم الغريبة ، ولو لم يقدر عليه كل أحد ، إلاّ أنّه من الطرق التي كل من عرفها يقدر عليها من غير

خصوصية لشخص دون آخر .

واما الاعجاز فلا طريق اليه لغير النبي المتمكن من الاتّصال بالقدرة الألٰهية ، والاستمداد منها ، فان احياء الموتىٰ بالاشارة وابراء الأكمه والأبرص كذلك ، والاخبار بالمدّخر في البيوت ، من المعجزات المنقولة في القرآن الكريم عن المسيح عليه السلام [١] ، وكذلك صيرورة عصا موسىٰ ثعباناً أو حيّة [٢] تسعىٰ وتلقفُ [٣] سحر السحرة وكذلك بياض يده عليه السلام [٤] مما حكاه القرآن الكريم لموسىٰ عليه السلام كل ذلك باذن الله وارادته علىٰ سبيل غير طبيعي ، وكذلك ما عن ابراهيم عليه السلام [٥] وغيره من الأنبياء عليهم السلام [٦] وما عن سيّد المرسلين وخاتم الأنبياء [٧] (صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله أجمعين) كلها من هذا القبيل .

أضف الىٰ ذلك ان الاعجاز هو تصرّف في جوهر الشيء وعمقه وحقيقته بارادة الله تعالىٰ بحيث يصيّر الميت حيّاً واقعاً والعَصا ثعباناً واقعياً يتمكن من التلقف؛ واما السحر وأشباهه فتصرّف في ظواهر الأشياء أو في رؤية الناظر فقط [٨]

---

١) «اني قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً باذن الله وأُبرئ الاكمه والأبرص وأُحيي الموتىٰ باذن الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين» . (آل عمران [٣] الآية ٤٩)

٢) «فألقاها فاذا هي حيّة تسعىٰ» . (طه [٢٠] الآية ٢٠)

٣) «فألقىٰ موسىٰ عصاه فاذا هي تلقف مايأفكون» . (الشعراء [٢٦] الآية ٤٥)

٤) «فألقىٰ عصاه فاذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين» . (الاعراف [٧] الآية ١٠٧ـ١٠٨)

٥) كما اشار اليه الله سبحانه وتعالىٰ في آية ٢٦٠ من سورة البقرة [٢] «قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ اليك ثم اجعل علىٰ كل جبل منهنّ جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعيا» ، وكقصة النار التي اشار اليها الله تعالىٰ في آية ٦٩ من سورة الأنبياء : «قلنا يانار كوني برداً وسلاماً علىٰ ابراهيم» .

٦) كخروج ناقة صالح من الجبل : «قد جاءكم بينةٌ من ربّكم هذه ناقة الله لكم آية» . (الاعراف [٧] الآية ٧٣)

٧) كالقرآن الذي يكون معجزته الخالدة وقال الله تعالىٰ في حقّه : «وان كنتم في ريبٍ مما نزلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورة من مثله» . (البقرة [٢] الآية ٢٣) ولايمكن الاتيان الىٰ الابد .

٨) قال الله تعالىٰ في آية ٦٦ من سورة طه [٢٠] في قضية سحرة فرعون : «فاذا حبالهم وعصيّهم يخيّل اليه من سحرهم أنّها تسعىٰ» لا أنّها تسعىٰ واقعاً .

حسب القواعد الخاصة الطبيعية ، يتمكن من تعلّمه كل أحد ، وذلك هو السرّ في ايمان السحرة بالله موسىٰ قبل كل أحد[1] فانّهم علموا أنّ حقيقة عمله ﷺ غير عملهم الظاهري المورث للاشتباه في نظر الناظر ، كما تعرف ذلك فيما يعملون بسرعة الحركات وخفة اليد .

الثبات في العمل حتىٰ نهاية المطاف :

والشيء الواضح الظاهري في عمل كل الأنبياء ﷺ هو الوحدة والاتّفاق في الدعوة والطريق والهدف وثباتهم في مقام العمل والتبليغ مع كثرة المشاكل التي تواجههم في طريق دعوتهم من المخالفات العملية والاتّهامات القولية ، فتراهم يقاومون حتىٰ النصر والتوفيق من غير وهن وتزلزل أو ضعف وترديد علىٰ خلاف أصحاب المذاهب الفلسفية والدعاة الىٰ الاصلاح ، فانّهم يختلفون أولاً مع الأنبياء في المباني وثانياً في التطبيق العملي ، فكثيراً مايعترضهم الترديد بل حتىٰ التغيير والانقلاب على العقب لاسيّما ازاء تغيّر الأوضاع والأحوال السياسيّة ؛ وسبب الفرق هو انّ الأنبياء ﷺ يتّصلون بالوحي ومبدئه مع قوة وصلابة في الايمان ، وغيرهم يتكلّمون من علومهم المأخوذة عن المحيط والأستاذ والكتاب ومختلف شروط الحياة المتغيّرة .

كيف نسب اليهم العصيان :

هذا كلّه من أمهات صفات الأنبياء ﷺ علىٰ نحو الاجمال . ويبقىٰ هنا سؤال عمّا نسب اليهم من الذنب والعصيان في الكتاب الكريم وانّ ذلك لايساعد علىٰ ماذكر لهم من علوّ الروح وشدّة العقل ولاسيما العصمة كما تراه في قصة آدم ﷺ

---

١) «والق مافي يمينك تلقف ماصنعوا... فألقى السحرة سُجّداً قالوا آمنا بربّ هارون وموسىٰ» .
(طه [٢٠] الآية ٦٩ ـ ٧٠)

وحتىٰ بالنسبة الىٰ النبي الخاتم (صلوات الله عليه وعلىٰ آله) فلابد لنا من الاشارة اليه علىٰ الأقل .

وقد ذكر جواباً عن ذلك مسائل علىٰ ملاكات مختلفة مثل قولهم بالمرتبة علىٰ ملاك : «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين» فيكون اطلاق العصيان والذنب غير حقيقي.

والذي نظن انه أقرب الوجوه : أن ذلك من باب تصادم الملاكات في مقام العمل فيقدّم الأهم ويترك غيره علىٰ سبيل الالزام ويكون ذلك الترك في الظاهر تخلّفاً وعصياناً مع أنّه لابدّ منه . ألا ترىٰ ذلك في مثال انقاذ الغريق والتصرّف في ملك الغير بالعبور منه ، وحتىٰ بين الواجبين من الصلاة وتطهير المسجد عند ضيق الوقت ، فانه يترك أحدهما قطعاً . وفي قطع اليد من الأنامل لئلاّ تقطع من الزند أو منه لئلا تقطع من المرفق بل تقطع اليد تحفظاً علىٰ سلامة البدن ، كل ذلك علىٰ أساس عقلي وشرعي واحد وهو قانون رعاية الأهم فالأهم حال التصادم .

وعندنا أوضح الأمثلة للبحث عمّا حكاه الله تعالىٰ في القرآن الكريم عن قصّة خضر النبي وموسىٰ الكليم عليهما السلام في خرقه السفينة وقتله الغلام وتعميره الجدار واعتراض موسىٰ علىٰ تلك الأعمال التي كان ظاهرها الخلاف والعصيان ، والحق كان مع موسىٰ في ظاهر الأمر قبل تبيّن حقائق الأمور وبواطنها حسب التكاليف الشرعية المبنيّة علىٰ ملاكاتها ، وامّا بعدما تبيّن الأمر بتشريح واقع الحال وان خرق السفينة مع انه كان إضراراً بمالكها في الجملة إلاّ أنه في مقابل الضرر الكلي بغصب الملك لأصل السفينة ، وانه لا طريق الىٰ الخلاص ودفع الضرر الكلي إلاّ الخرق وهو الضرر الجزئي ، فالعقل والشرع يحكمان بلزوم ارتكاب ذلك العصيان في الظاهر وليس بعصيان واقعاً لصيرورته طريقاً منحصراً الىٰ الأهم الواجب بحيث كان ذلك

الحكم هو تكليف علىٰ نفس موسىٰ أيضاً لو كان مطّلعاً علىٰ الدوران وكذلك في قتل الغلام وتعمير الجدار .

وعليه فانه لم يكن طريق الىٰ وصول آدم وابنائه جنة الخلد والرضوان و.. ، الىٰ آخر كمال يمكن تحقّقه للانسان إلاّ الورود بهذا العالم الطبيعي والخروج عن الجنة التي دخل بها آدم وزوجته ولم يكن طريق للخروج من هذه الجنّة الواقعة في طريق الدخول الىٰ جنّة الخلد إلاّ الأكل من الشجرة المنهي عنها لسبب ما ، فمقتضىٰ حكم العقل والشرع علىٰ أساس رعاية الأهم فالأهم ارتكاب ذلك النهي والأكل من الشجرة حتىٰ يتمكن من الخروج والهبوط الىٰ الدنيا التي هي الطريق الوحيد الىٰ الآخرة وجنّة الخلد التي وُعد المتّقون ، وهو بظاهره عصيان وارتكاب منهيّ ، إلاّ أنّه حسب موقعه الخاص الخارجي لازم واجب الاتيان ، فليس بعصيان ، أي تخلّف العبد عن حكم المولىٰ تجرياً عليه وطغياناً فلاينافي العصمة بل مقتضاها ظاهر فيه وبذلك يتمّ اطلاق كلمة العصيان حقيقة مع عدم التجري علىٰ المولىٰ وحفظ العصمة .

وأمّا الذنب المنسوب الىٰ رسول الله خاتم النبيّين ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ **انّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر** ﴾[١] ، فلا يرتبط بالعصيان وتخلّف أمر المولىٰ أصلاً ، ويرشد الىٰ ذلك مسألة الربط بين الفتح المبين ـ فتح مكة الذي فتحه الله تعالىٰ علىٰ يد رسوله والمؤمنين ـ وبين أن يغفر بذلك ويستر علىٰ كل تبعة وذنب في نظر الكفار المشركين لما تقدم عن الرسول من تبليغه رسالة ربّه في مكة وتخطئته الناس وأصنامهم وما تأخّر عن ذلك من المواجهات ، فبفتح مكة ختم الأمر وتحقّق الأمان من شرور كفّار قريش في مكة [٢] وبعفوهم الرسول ﷺ تمّ اعتقادهم بذنبه وخصومتهم له ﷺ ، فلا ذنب ولا عصيان بمعنىٰ

---

١) الفتح [٤٨] الآية ١ و ٢ .

٢) وفي المقام دخول حرف « اللام » علىٰ كلمة « يغفر » في الآية يوضّح الأمر .

التجرّي على المولىٰ له كي يغفره الله تعالىٰ في يوم القيامة .

وبعد تمامية الاستدلال العقلي بوجوب عصمة الأنبياء جميعاً ، يجب توجيه ماقيل في عدم عصمتهم بنحو صحيح ، فالأنبياء عليهم السلام هم المعصومون بلا إشكال ولم يقع عنهم العصيان والخطأ والنسيان قطّ .

النبوّة الخاصّة :

أمّا من هو النبي الذي لابدّ أن نتّبع شريعته ونعمل حسب إبلاغه في زماننا الحاضر ؟

من المعلوم أن الانبياء الذين لهم أمم ومؤمنون في زماننا هذا ـ بعد اشتراكهم في الأصول الكليّة والشرائع الأصليّة ـ هم موسىٰ كليم الله وأُمّته اليهود ، وعيسىٰ روح الله وأُمّته النصارىٰ ، ومحمّد حبيب الله صلى الله عليه وآله وامتهُ المسلمون خيرُ أُمّة أُخرجت للناس[١] . ولم يدّع أحد من موسىٰ أو عيسىٰ عليهما السلام الخاتمية بأن لايكون بعده نبي بل بشّر عيسىٰ عليه السلام بني من بعده اسمه أحمد[٢] كما في العهدين القديم والجديد مع انّهما محرّفان في كثير من الموارد علىٰ التفصيل المذكور في المفصّلات .

وكيف كان فالإنسان الحاضر مواجه لدعوة الاسلام ونبوّة خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وهو يستشهد بما في كتب أهل الكتاب من البشارات والشواهد علىٰ مدّعاه وقد أتىٰ بكتاب كريم فصّلت آياته من لدن حكيم خبير[٣] ويطلب المقابلة

---

١) قال تعالىٰ مخاطباً أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله : «كنتم خير امّةٍ أُخرجت للناس» . (آل عمران[٣] الآية ١١٠)

٢) «واذ قال عيسىٰ بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمد» . (الصف [٦١] الآية ٦)

٣) «كتابٌ احكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير» . (هود [١١] الآية ١)

والمبارزة مع كتابه حتىٰ في الإتيان بسورة واحدة أو بآيات قليلة[١]، ولم يأت به أحد طوال قرون عديدة رغم العداوات الشديدة ، فليس هناك طريق إلاّ اجابة تلك الدعوة بالقبول .

وأقوىٰ المعجزات والآيات علىٰ نبوّته ﷺ نفس ظهوره في مثل تلك الظروف في قومه وبلده وفي العالم القديم ، فانّ من لم يتعلّم عند استاذٍ طول حياته وقد نشأ في أدنىٰ وأقل الأُمم تمدّناً وقد كان في زمنه البلاد الكبيرة والمتقدمة علىٰ اُمته بمراحل كثيرة من التمدن علىٰ شروط خسيسة مثل انحصار التعلّم وتعبيد الناس والبلاد كما في امبراطورية الروم وايران ، وفاق في أوائل حياته جميع الأقران في البعث ودعوة الناس الى اللّه تعالىٰ وقد أتىٰ بما لم يأتِ به أحد من العالمين في شتات شؤون حياة الانسان الفردية والجماعية بأدقّ المسائل وأمتن الأحكام بحيث كلّما امتد الزمن وتعالت الثقافة والتفكير والعلم والصناعة ، زاد في ظهور متانة أحكامه وبروز دقّة شرائعه ؛ وهذا لايمكن دون الربط بالمبدأ الأعلىٰ واٰله العالم. وبذلك نتيقن بنبوّته وانه هو الذي لابدّ وأن نتّبعه وانّه هو الذي بشّر به موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام وفعل ذلك معنىٰ كلام الامام عليه السلام : **«اعرفوا الرسول بالرسالة»** فانّ نفس شرائعه واستحكام أحكامه وقوانينه يثبت رسالته ؛ أضف الىٰ ذلك سائر معجزاته وأخباره الغيبيّة في الكتاب وغيره ، علىٰ التفصيل في محلّه .

هذا وقد يُسأل ، انّ الانسان يتكامل كما يتكامل العالم الكبير أيضاً ، فهو واقع في طريق التكامل الطبيعي وهو يكون أكمل من سابقه جيلاً بعد جيل وكلّ يوم في جميع شؤون حياته وعلىٰ كل الأصعدة ، فكيف يتصوّر الختم في الشريعة والنبوّة الهادية إياه الىٰ الحق في هذه الحركة، فكما كانت الشرائع من الأول بسائط ومتكاملة

---

١) «ان كنتم في ريب ممّا نزّلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورة من مثله» (البقرة [٢] الآية ٢٣) وهذا التحدي شاملٌ لسورة الكوثر أيضاً مع انها ثلاث آيات قصيرة .

الىٰ زمن رسول الله ﷺ ، فلابدّ وأن يكون كذلك فيما بعد حسب تكامل الانسان ، فكيف يُتصور الختام ؟!

ولكنك تعرف انّ السرّ في الختام هو التوافق مع نظام الخلقة وقوانين الطبيعة؛ بمعنىٰ أنّ الاسلام أتىٰ بما ينطبق علىٰ مجموع النظام ، بحيث لو كان للانسان بنفسه معرفة تامة بالخلقة وعلاقات العالم مع الانسان والانسان مع الانسان كما هو ، لاعتقد بنفسه بتلك الشرايع من غير زيادة ونقصان واذاً فكما ترىٰ في نظام العالم الأصول الثابتة والقوانين الكليّة الحاكمة ، فكذلك في نظام التشريع المنطبع عن التكوين تجد قوانين كلّية من حلال وحرام علىٰ ملاك واجب ومستحب ، وكما ان الملاكات ثابتة في الطبع فكذلك أحكامها في الشرع ، وهذا معنىٰ قول الباقر عليه السلام : **«قال جدي رسول الله ﷺ أيّها الناس حلالي حلال الىٰ يوم القيامة وحرامي حرام الىٰ يوم القيامة»**[١] فان نظام الخلق والطبع نظام ثابت الىٰ يوم القيامة ، وماتجد في الطبع من التكامل والتحوّل فيتحوّل ويتكامل يتبع ملاكه الأحكام أيضاً حسب المقتضيات بل حسب تصادم الملاكات كما عرفت في مسألة العصمة فيقدّم الأهم ، فهناك كلّيات ثابتة لا تتغيّر تنطبق عليها الفروع الحادثة المتغيرة المتكاملة .

ويعبارة اخرىٰ : بلغ ابلاغ الشرائع الىٰ حدّ كماله الذي لم يبقَ شيء يأتي به نبي آخر ، فانّ مايأتي به الآخر المفروض ان كان مساعداً لملاكه الطبيعي الموافق له حكم العقل فقد أتىٰ به رسول الاسلام ﷺ ، وان لم يكن يساعد الملاك ولم يوافقه العقل السليم ، فلامعنىٰ لتشريعه وتكليف الانسان به .

ولذلك ترىٰ الاسلام شريعة عالمية غير مختصة بقوم دون قوم وبزمان دون

---

١) وسائل الشيعة : ج١٨ ص ١٢٤ .

زمان أو مكان دون مكان ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾[١] ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين ﴾[٢] ﴿ وما أرسلناك الاّ كافةً للناس ﴾[٣]. علىٰ خلاف الشرائع السابقة المحدودة زماناً ومكاناً أو زماناً فقط من شرائع أولي العزم الذين لافرق بينهم وبين الاسلام في الكلّيات الاعتقادية بل العملية مثل أصل الصلاة والصوم والزكاة والحج، ولافرق بين أحد من رسله[٤].

فالاسلام هو آخر الشرائع الإلٰهية وأكملها وأشملها ولابدّ للانسان أن يتّبعه، ونبيّ الاسلام خاتم الأنبياء (عليه وعلىٰ آله وعليهم السلام) لانبيّ بعده ﴿محمدٌ رسول الله وخاتم النبيّين﴾[٥]، وقد بلّغوا وأبلغوا رسالات ربّهم الىٰ عباده وهم شهداء وهو شهيد عليهم[٦].

لفت نظر:

ثمّ أنّك تعلم أنّ الرسالة منزلتها للناس منزلة العقل للفرد، فكما يرشد العقل الىٰ حكم وبيّنة من غير إجبار في العمل به أو تركه، فكذلك النبيّ يرشد الىٰ حكم الله ويبلّغه من غير الزام للعمل في مرحلة النبوّة والرسالة ﴿وما علىٰ الرسول إلاّ البلاغ﴾[٧] والىٰ هنا يتمّ كمال نظام الخلق في الانسان ويرتفع النقص من ناحية الخالق فانّه تعالىٰ فطره مختاراً وأكرمه بذلك ثم أعطاه العقل حتىٰ يميّز الخبيث من الطيّب[٨] ويعرف الخير من الشرّ ثم أعطاه النبوّة حتىٰ يكمل عرفانه في المجالات

---

١) النساء [٤] الآية ٧٩.
٢) الأنبياء [٢١] الآية ١٠٧.
٣) سبأ [٣٤] الآية ٢٨.
٤) «المؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لانفرّق بين أحدٍ من رُسُله». (البقرة [٢] الآية ٢٨٥)
٥) «ماكان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين». (الاحزاب [٣٣] الآية ٤٠)
٦) «فكيف اذا جئنا من كل امةٍ بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً». (النساء: الآية ٤١)
٧) المائدة [٥] الآية ٩٩.
٨) «ماكان الله ليذر المؤمنين علىٰ ماأنتم عليه حتىٰ يميّز الخبيث من الطيّب». (آل عمران [٣] الآية ١٧٩)

التي ليس للعقل فيها معرفة ، فينتخب الطريق الىٰ السعادة عارفاً ، أو الىٰ الشقاوة كذلك .

﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بينة ﴾[١] ﴿ لئلا يكون للناس علىٰ الله حجّة ﴾[٢] ﴿ فللّه الحجّة البالغة ﴾[٣].

هذا ، ولكن هل يتمّ الأمر بذلك في ادارة المجتمع ؟ وهل يكفي الخير والشر ومعرفتهما في العمل بهما ؟ أو يحتاج الىٰ مقام آخر يضمن الاجراء والعمل ؟

الامامة تتبع الرسالة :

والرسول ﷺ بعدما فرغ من تبليغ رسالته وأرشد العبد وهداه ، قد لا يعمل العبد بعلّة أنه مختار غير مجبر ويصرّح بأني أريد الخسران والشقاوة، ولا يرتبط ذلك بالغير ، وأنا بنفسي الذي أعمل علىٰ طريق الشقاوة ، وأترك طريق السعادة الأبدية طلباً للدنيا الفانية وعليّ تحمّل كل لوازم العمل في الدارين الدنيا والآخرة، ولا يرتبط ذلك بالغير ؟!

هذا ، ولكن حيث أنّ الانسان مدنيّ واجتماعي بطبعه وفطرته ويرتبط مع غيره قهراً في مختلف شؤون الحياة ، فاذا تخلّف عن حكم وارتكب العصيان فقد تجاوز الىٰ حدود الآخرين في الجملة ، والتجاوز الىٰ حدود المجتمع لابدّ وان يُدفع ويُرفع ، والدافع هو صاحب الحق وهو المجتمع ، وحيث لايتمكّن من ذلك بتصدّي جميع الأفراد فلابدّ وأن يتصدىٰ من قبله فرد له ولاية علىٰ المجتمع وحفظ حقوقه،

---

١) الانفال [٨] الآية ٤٢ .
٢) النساء [٤] الآية ١٦٥ .
٣) الأنعام [٦] الآية ١٤٩ .

والفرد اللازم وجوده في كل مالايتمكن أن يتصدىٰ له الجميع ـ ومنه موارد تعارض حقوق الفرد والمجتمع ـ هو الامام نبيّاً كان أو ليس بنبيّ .

بل النبوّة والرسالة لاتنتج من دون الامامة ـ كما عرفت ـ ولذلك ترىٰ ان الامامة أعظم من الرسالة ، وترىٰ انّ الرسالة تقبل الختام وقد خُتمت ، والامامة لاتقبل ولايمكن أن تُختم مادام الانسان يعيش علىٰ الأرض بصورة اجتماعية ، فانّك ترىٰ أنّ ابراهيم (علىٰ نبيّنا وعلىٰ آله وعليه السلام) نالَ مقام الامامة في أواخر زمن رسالته وبعد تجاوز الامتحانات المتعددة ، قال تعالىٰ : ﴿ **وإذ ابتلىٰ ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ قال : اني جاعلك للناس اماماً قال : ومن ذرّيتي ؟ قال : لاينال عهدي الظالمين** ﴾[1] ، علىٰ التفصيل المذكور في غير هذا المقام ، وكذلك لرسولنا خاتم الرُسل ﷺ مقامان : الرسالة والامامة ، وعلىٰ كل منهما آيات نذكر بعضها : ﴿**محمدٌ رسول الله والذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رُحماء بينهم**﴾[2] ، ﴿**ماكان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين**﴾[3] ، ﴿**ماعلىٰ الرسول إلاّ البلاغ**﴾[4] ، ﴿**فان تولّوا فانّما عليك البلاغ المبين**﴾[5] .

وممّا يدلّ علىٰ امامته ﷺ آيات كثيرة منها قوله تعالىٰ : ﴿ **ماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[6] و ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾[7] أو ﴿ **أطيعوا الله ورسوله** ﴾[8] ، فانّ معنىٰ عدم اختيار مؤمن

---

١) البقرة [٢] الآية ١٢٤ .
٢) الفتح [٤٨] الآية ٢٩ .
٣) الأحزاب [٣٣] الآية ٤٠ .
٤) المائدة [٥] الآية ٩٩ .
٥) النحل [١٦] الآية ٨٢ .
٦) الاحزاب [٣٣] الآية ٣٦ .
٧) النساء [٤] الآية ٥٩ .
٨) الانفال [٨] الآية ٢٠ .

ومؤمنة لدىٰ قضاء رسول الله ﷺ وكذا معنىٰ وجوب اطاعة الرسول علىٰ نسق اطاعة الله ليس إلاّ ولاية الرسول وامامته ووجوب العمل برأيه . وأدلّ من الكلّ قوله تعالىٰ : ﴿ النبيّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ﴾[١] ، فللنبيّ الولاية علىٰ الأفراد في كل ما لهم ولاية منه ، وسيأتي تمام الكلام في حدود صلاحيات الامام .

ومن المعلوم أنّ اطاعتنا الرسولَ في أحكام الله التي يبلّغها من الصلاة والصيام ـ مثلاً ـ هي في الواقع اطاعة لله تعالىٰ لا اطاعة لشخص الرسول ، فانه ليس له إلاّ البلاغ ، كما انّ الحال يختلف في اطاعتنا إيّاه في أوامره ونواهيه في الأمور الشخصية مثل لزوم شروع الجهاد في يوم كذا أو الصلح في حال كذا أو كون زيد بن اسامة ـ مثلاً ـ اميراً وغيرها من الأمور . فهذا ليس بإطاعة الله مباشرة ، فإنّ الله تعالىٰ لم يجعل زيداً أميراً بل الرسول جعله كذلك ، والله تعالىٰ أمر بإطاعة الرسول ، ومن ذلك يعرف أنّ وجوب اطاعة الرسول في سياق إطاعة الله تعالىٰ تدلّ علىٰ امامته ووجوب اطاعة أوامره ، وتمام الكلام في مسألة الامامة كما سيأتي البحث عنها انشاء الله تعالىٰ .

---

١) الاحزاب [٣٣] الآية ٦.

الفصل الثالث :

المعاد

الكلام في المنتهىٰ :

قد عرفت أن نقطة الشروع في بحث الانسان حول نهايته بدأت من أوّل ماكان ينظر الىٰ ماحوله بعدما رأىٰ الحركة في العالم .. في نفسه وفي كل شيء أحاطه ، فسأل عن نقطة الشروع ونقطة الاختتام ، فانه عرف بفطرته ان الحركة بكل أنواعها وأنحائها ـ في ظاهر الشيء وعَرَضه أو في باطنه وجوهره ـ كما انّ لها عاملاً فاعلياً وعلّة ايجادية وايجابية فكذلك لها عامل غائي وعلّة نهائية كان الوصول لها علّة لها ، فالانسان له في حركته الوضعية حول نفسه اثناء قيامه في التمرين غايةٌ ، وفي حركته الانتقالية من البيت الى المدرسة أو المكتب أو غيرهما غاية أُخرىٰ ، والبذر في حركته من جوف الأرض الىٰ سطحها والنمو في طريقه الىٰ توليد المثل غايةٌ من إبقاء نوعه ـ مثلاً ـ ، وكذا في حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس وفي حركات الشمس والقمر وسائر الأقمار وكذا النجوم في السماوات العُلىٰ غايةٌ ونهايةٌ وغرضٌ اذا انتهت اليها تتمّ وتتوقّف .

وبعبارة اخرىٰ : ان الحركة التي تراها حتىٰ في أصغر موجودات العالم بأي نحو وبأيّ وضع في الاعراض أو الجواهر لاتكون إلاّ في اتجاه الغرض والنتيجة النهائية، فاذا وصل وانتهىٰ اليها توقف عن الحركة ، كما ترىٰ ذلك في الجواهر في حركتها من نوع الىٰ نوع أكمل ، وصولاً الىٰ الكمال المطلق ، وعندئذٍ لاحركة بل توقّف وسكون بل كمال مطلق ، ألا ترىٰ أنّ القوىٰ والاستعدادات تؤدي في طريق الوصول الى الفعليات في كل مرحلة عملاً خاصاً وبعدما تصل الى فعل وتحقّق تترك ذلك العمل وتعمل عملاً آخر حتىٰ الوصول الىٰ فعل وكمال أقوىٰ ، وهكذا حتى

تتصل الى بالكمال المطلق ، وعندئذٍ ليس إلاّ الفعلية الكاملة من غير قوّة واستعداد ، وهناك ليس إلاّ التوقّف والسكون والكمال ، وهناك المنتهىٰ وغاية الطريق ونهايته .

ومنتهىٰ العالم غايته المطلقة ، ولن تجد في المرحلة الاخرىٰ في نهاية الحركة إلاّ الكمال والسكون المطلق ، فليس هناك نقص وضعف وليس هناك استعداد بل فعلية خالصة .

ألا ترىٰ مافي آيات الله تعالىٰ في الكتاب الكريم الراجعة الىٰ حوادث قبل القيامة تخبر عن اختتام ذلك النظام القائم على الحركة في سائر انحاء المادة في العالم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾[1] ، ﴿ **يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب** ﴾[2] ، ﴿ **اذا الشمس كوّرت واذا النجوم انكدرت ...** ﴾[3] ، وغيرها من الآيات الكثيرة فراجع .

وهنا يبرز سؤال : ان الانسان يعبد الله تعالىٰ في الدنيا ويطيعه سنين عديدة ، ستّين أو سبعين سنة الىٰ مائة أو أكثر، وكذلك قد يعصيه في أيام قلائل أو سنين محدودة لو عصىٰ في تمام عمره ، ثم يؤتى بالذين آمنوا وعملوا الصالحات الىٰ جنّة الخلد ، ويخلّد الذين كفروا بآيات الله في نار جهنم ، وأين الخلد مع سنين عديدة وأين الأبدية مع المدّة المحدودة وكيف يناسب الثواب أو العقاب العمل ، وهذا لايناسب العدالة في طرفي القضية إلاّ أنه في العقاب أظهر ؟

والجواب :

فانك بما عرفت من ماهيّة البحث وجوهر الأمر تجد الجواب بيّناً ظاهراً ، فان

١) ابراهيم [١٤] الآية ٤٨ .
٢) الأنبياء [٢١] الآية ١٠٤ .
٣) التكوير [٨١] الآية ١ ـ ٢ .

الخلود والأبدية والبقاء هو من طبع عالم الاطلاق ، فانّ الخير والكمال والفعلية المطلقة لازمة للخلود والأبديّة كما ان من طبع دار الفناء والتقييد والتحديد و (القوة والفعل) هو عدم البقاء والدوام .

وهناك أمر آخر وهو أن الايمان بالله تعالىٰ والعمل الصالح ينتهي قهراً الىٰ الجنة ، والكفر سبيل الىٰ النار . وهذا أيضاً من نواميس الخلقة ونظام الفطرة في روابط الأعمال والنتائج ، فينتج من الايمان والعمل الصالح الجنة ، ومن الكفر النار ، والخلود والبقاء طبع الجنة والنار كليهما ، وعدم البقاء يساوق عالم الطبيعة ولازم الدنيا، وهذا هو العدل بعينه وكماله ،كما سيأتي توضيح ذلك في مسألة العدل انشاء الله تعالىٰ .

طريق آخر لاثبات المعاد:

وهناك طريق آخر لاثبات المعاد والمنتهىٰ للعالم وهو مسألة النبوّة ، فانك بعدما عرفت في مسألة النبوّة من ضرورة وجود الأنبياء عليهم السلام ولزوم اتّباعهم في كل ماجاءوا به ممّا يصدقه العقل ولايردّه بعد الالتفات الىٰ عصمتهم وصدقهم ، فانهم كلهم أخبروا بوجود القيامة والمعاد ، وانّ في انتهاء ذلك العالم يوماً ومرحلة يأتي فيه كل انسان لكي يرىٰ نتائج أعماله خيراً أو شراً .

وفي ختامهم نبيّ الاسلام صلى الله عليه وآله ـ أيضاً ـ قد أخبر عن الله تعالىٰ في القرآن الكريم في آيات كثيرة بوجود يوم القيامة علىٰ التفصيل فيما يتحقّق قبل القيامة وعندها وفي الانتهاء الىٰ الجنة أو النار ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[1] .

واذا أخبر بذلك النبيّ الذي ﴿ ومايتطق عن الهوىٰ . إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ.

---

١) التوبة [٩] الآية ٧٢.

علّمه شديد القوىٰ ﴾[١] ، وفصّل ذلك في القرآن الكريم ، فلا طريق الىٰ انكاره بعد قبول الرسالة والكتاب كما تعلم .

هذا كلّه في أصل المنتهىٰ والمعاد وانه متّصل بالمبدئ وهما من الأُصول الأوليّة القطعيّة في المعارف الألهيّة وكذا في معارف الاسلام .

نعم هناك مسائل اخرىٰ كثيرة نشير الىٰ مطالب منها أو نشير الى رؤوسها بالاختصار مثل كون المعاد للانسان جسمانياً ومسألة الكتاب والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ، ويطلب تفصيل كل ذلك في الكتب المعدّة لها من المفصّلات ، ونذكر هنا في كل ذلك شطراً من الكلام .

الانسان يعود كما هو :

المدّعىٰ في الاسلام كما هو صريح آيات القرآن والروايات المتواترة عن النبي الأكرم ﷺ وعن الأئمة الطاهرين ﷺ : ان كل انسان يحشر يوم القيامة ويرىٰ نتائج أعماله خيراًكانت أو شراً ... **﴿ يومئذٍ يصدر الناس اشتاتاً ليُروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ﴾**[٢] ، وتفصيل الآيات في الباب يطلب من رسالتنا : **(أُسس الايمان في القرآن)** ، وروايات الباب لاتخفىٰ على المتتبع وقد جمع كثيراً منها صاحب : «المحجة البيضاء» الفيض الكاشاني (رضوان الله عليه) لدىٰ الكلام حول المسألة ، وقد صرّح فيها في التفاسير كما هو ظاهر الآيات: ان الانسان يأتي بنفس هذا البدن وبأعضائه وجوارحه نفسها في يوم يقول الله تعالىٰ : **﴿ يوم نختم علىٰ أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا**

---

١) النجم [٥٣] الآية ٣ ـ ٥ .

٢) الزلزلة [٩٩] الآية ٦ ـ ٨.

يكسبون ﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ﴾[٢]، وغيرها ممّا تدل علىٰ: أن المحشور هو انسان مادي كما يكون في هذا العالم مثل قوله تعالىٰ: ﴿ أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلىٰ قادرين علىٰ أن نسوي بنانه ﴾[٣]، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿ حتىٰ اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾[٤]، وكذا قوله جل جلاله: ﴿ أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه، بلى قادرين علىٰ ان نسوي بنانه ﴾[٥].

شبهة الأكل والمأكول:

وهنا يذكر اشكال، وقد ذكر علىٰ صور عديدة وبيانات متفاوتة تحت عنوان الآكل والمأكول سابقاً وبعناوين اخرىٰ لاحقاً: من أن الانسان اذا تبدّل جسمه في هذا العالم الىٰ مأكول من حنطة أو شعير أو فواكه وخضروات فأكله انسان آخر وصار جزءاً من جسمه بتلك المادة الواحدة كانت جزءاً للانسان الأولي ثم صار جزءاً للثاني، فيوم القيامة يتعلّق هذا الجسم بالأكل الثاني أو المأكول الأول. وكذا اذا فرض أنّ أحدهما كان مؤمناً في الدنيا والآخر كافراً، فعبد اللهَ تعالىٰ المؤمنُ بذلك الجسم المادي، وعصىٰ اللّهَ تعالىٰ الكافرُ به أيضاً، فانّ تعلّق الجسم بالمؤمن فقد دخل الجنةَ جسمٌ عُصي به الله تعالىٰ وان تعلّق بالكافر فقد دخل النار جسم اطيع به الله تعالىٰ، وهكذا من قبيل تلك الاشكالات. وأجمل صور الاشكال في زماننا هذا، إنّا اذا حسبنا وزن جسم أفراد الانسان الموجودين في القرن الحاضر يصير أكثر من مئتين

---

١) يس [٣٦] الآية ٦٥.
٢) النساء [٤] الآية ٥٦.
٣) القيامة [٧٥] الآية ٣ ـ ٤.
٤) فصلت [٤١] الآية ٢٠ ـ ٢١.
٥) القيامة [٧٥]: الآية ٣ ـ ٤.

مليون طن علىٰ حدّ وزن الانسان المتوسط [١] فاذا أضفنا اليه وزن أفراد الانسان في كل قرن علىٰ حدّ الوزن المتوسط من تعداد الأفراد ووزن كل فرد ينتهي الوزن اللازم للقرون العديدة ، فكيف بنا اذا جمعنا وزن جميع البشر تلك القرون والأزمنة ، اذ يصبح حسب التقدير أكثر من وزن نفس الأرض المسكونة [٢] ، وعندئذٍ كيف يحشر جميع أفراد الناس من كل زمان باجسامهم في مكان واحد يسمىٰ المحشر وفي زمان واحد يسمىٰ يوم القيامة .

وباختصار : اذا قسّمنا كرة الأرض بمواردها علىٰ كل أفراد بني الانسان الواجب حشرهم ، فسوف تنقص عنهم ولا تسعهم مادتها ، اذن سيبقىٰ عدد هائل من البشر بلا مادة حتى نقول ان حشرهم يكون جسمانياً ومن نفس الأرض .

وانت بالدقة والتأمّل تعرف أن ذلك كلّه يرجع الىٰ أمر واحد في أدق معانيه ، وهو: ان المادة هذه التي يعيش بها الانسان اسست علىٰ الحركة والكون والفساد ـ من أصغر الذرات ومروراً بالاجزاء حتىٰ الأعضاء والجوارح ـ فكيف يحشر بها في عالم أُسّس علىٰ الثبات والبقاء والسكون ؟ واذا لم تكن الحركة والتكامل فلا مادة ، فكيف بالقلّة والكثرة ونقص المواد الأولية لتسوية الانسان حتىٰ بنانه .

ولكن الحق ان في الاشكال جهتين :

الأولىٰ : ـ نقص المواد الأولية وقلتها اللازم لاعادة جميع أفراد الانسان ولايمكن تكرر الحشر بمادة واحدة في زمان واحد كما كان ممكناً في الأزمنة المتتالية في هذا العالم ، وهذا مع غض النظر عن وضع المادة وما به قوامها .

الثانية : ـ الالتفات الىٰ وضع المادة وقوامها بالحركة وانه لايناسب عالم الثبات

---

١) ٤ مليارات × ٥٠ كيلوجرام لكل شخص = ٢٠٠ مليارد كيلوجرام يساوي ٢٠٠ ميليون طن .

٢) جرم كرة الأرض : ٦٦٠٠ ميليون طن .

والسكون وهذا مع غض النظر أيضاً عن نقصها أو كفايتها لتعدد أفراد الانسان ، والجواب عن كل منهما غير الجواب عن الآخر .

أمّا الجواب عن الأوّل :

فهو ان الذي لابد منه هو أن يكون الانسان المحشور مادياً مجسماً بحيث اذا شوهد يقال هذا هو بعينه ويعرفه الناظر بشخصه وانه فلان من الناس ، وبالعكس ، من غير توقف علىٰ مواد شخصية مضبوطة غير متغيرة أو متبدّلة ، ألا ترىٰ في نفس هذا العالم الماديّ المتبدّل انك اذا رأيت صديقك بعد سنين عديدة تعرفه وتقول : إنّك صديقي السابق ، ويعرفك هو أيضاً ، فتتحابان بعد التعارف ، أو الذي فعل خيراً يجازى بعد سنين عديدة أو شراً يعاقب عليه كذلك مع ان جسمه في زمن الحال ومواده غيرها في الزمن السابق وقد تحوّل وتبدّل مرات عديدة ، ومع ذلك هذا هو نفس الانسان . فالذي لابدّ منه هو مادة ما أو جسم ما يحفظ الهوية ولا يلزم حشر نفس المواد وإعادة أعيان العناصر الأولية ، فاللازم الهوية وصحة ذلك الاطلاق مع الجسم والمادة دون النفس المجرّدة والروح المعنوية فقط .

وعندئذٍ فافراد الانسان مهما بلغ عددهم سوف لاتنقص عنهم مجموع مواد هذا العالم وان قصرت كرة الأرض خاصةً ، وانت تعلم ان الأرض بعظمتها جرم صغير حقير قِبال سائر الكرات والشموس والأقمار وأنجم السماوات التي فيها شمس أكبر من شمسنا هذه بآلاف المرات . فاذا توجهنا الىٰ العالم الكبير المادي بالسماء الدنيا القريبة المرئية فقط ومدارها ، وما تصرح به العلوم الفضائية العصرية نعرف أنـه لا وجه لهذا الاشكال اصلاً فان أفراد الانسان في دائرة الزمان من أول خلقهم الىٰ الآخر محدودة متناهية ، وعالم المواد ـ علىٰ ماتعرف ـ قريب من اللانهاية ـ مع مسامحة في التعبير ، فان المادة محدودة أيضاً .

وكيف كان ؛ فحيث ان اللازم هو الهوية الموجبة لمعرفة المحشور وانه هو ،

وقوام هذا الحشر بمادةٍ ما بنفس المواد التي كان الانسان بها يعمل في حياته ومعها توفي ، ومن الواضح ان وجودة مادة ما التي بها يصح معرفة الانسان المحشور تنطبق علىٰ الموجودة من جديد وعلىٰ المخلوقة جديداً ؛ بحيث لو فرض ان مواد هـذا العالم بكثرتها محدودة وأقل مما يحتاج اليـه مـجموع أفـراد الانسـان ، فـالاشكال مرفوض أيضاً لامكان خلق مادة جديدة غير ما فـي هـذا العـالم . وعـليك بـالدقة والتأمّل حتىٰ لايختلط عليك الأمر فانه دقيق .

الجواب الثاني :

واما الجواب عن الثاني وأن المواد التي في هذا العالم أسـاسها قـائم عـلىٰ الحركة ، فكيف تضمن الجسمانية في عالم أساسه قائم علىٰ السكون ؟ فهو :

ان المادة التي عرفها الانسان وحدّدها العلم هكذا ، مؤسسة علىٰ الحركة كما أُشير اليها في بحث التوحيد ، وفي بحث عامل الحركة ، ولكن الانـحصار بـمعنىٰ امتناع تحقّق الجسم مع الثبات وعدم الحركة غـير ثـابت ، بـل بـين الامكـان ، أي الاشكال في امكان تحقّق جسم غير هذا الجسم المركب من الذرّات الصغيرة القائمة بالحركة بأن يوجد جسم مناسب لذلك العالم الثابت الباقي غير المتحرك الفـاني، فيخلق الله تعالىٰ ذلك الجسم أو يبدّل هذا بذلك ، فان كلاً منهما غير محال ، واللازم هو جسم ما تتم به الهوية ، فلا اشكال في المقام أيضاً[١] .

والحاصل : أن المعاد جسماني ، أي ان الانسان يأتي يوم القيامة انساناً مادياً كما تراه في هذا العالم لا بنفسه المجردة وروحه المعنوية فقط ولا يأتي منه الجسم والمادة فقط من غير نفس وروح ، فان الانسان مركب منهما كما عرفت وبهما الانسان انسان ، ويتصوّر الثواب والعقاب ، ولا اشكال في المقام ، اضف الىٰ ذلك كله الآيات

---

١) يشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ الواقعة [٥٦] الآية ٦٠، وغيرها مما استعمل فيها الانشاء والتبديل كما تعلم.

الكثيرة التي ذكرنا بعضها ، والاخبار الواردة عن الامام الصادق[١] والنبي ﷺ .

مسألة الكتاب :

واما مسألة الكتاب فانّ كل مايعمله الانسان أو يقوله بل يخطر بباله يُكتب ويحفظ ثم يحاسب كل انسان علىٰ مافي كتابه ويقال له : ﴿ **اقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[٢] ، الكتاب الذي لايمكن أن ينفك عن الانسان ﴿ **وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه** ﴾[٣] ، الكتاب الذي اذا رآه صاحبه يقول : ﴿ **مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ أحصاها** ﴾[٤] ، بل لايمكن ان يغادر عنه .

وإن هذا الكتاب لايكون بلغة خاصة كالعربية والفارسية ، ولا لكل انسان بلغته حتىٰ يختصّ بمن يتمكّن من القراءة ، ولا يكون علىٰ لوح من خشب أو جلد أو قرطاس ولا بقلم خاص أو لون مخصوص ، بل علىٰ وجه يكون مع الانسان ، وفيه كل ماصدر عنه ، مكتوب تراه يوم القيامة علىٰ وجهه الخاص .

الانسان اذا فكّر أو تكلّم أو عمل شيئاً فقد صدر عنه ذلك ، وكلّما صدر عن نفسه فقد وجد بقدرة ايجادها وصارت القوة فيها فعلاً ، وكل ماوجد فهو مضبوط ومكتوب علىٰ صفحة الوجود النفسي من ناحية تحقّق الفاعلية والفعلية العاملية وصار نقوشاً عليها بوجه عيني وجودي يمتنع انفكاكه عنها ، فانه منها وعنها حتىٰ

---

١) مثل هذا الرواية : قال الزنديق للصادق عليه‌السلام : انّىٰ للروح بالبعث والبدن قد بلي والاعضاء قد تفرّقت ، فعضو في بلدة تأكلها سباعها ، وعضو بأخرىٰ تمزّقه هوامها وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط ؟ قال عليه‌السلام : ان الذي انشأه من غير شيء وصوّره علىٰ غير مثال كان سبق اليه قادر ان يعيده كما بدأه . (البحار: ج٧ ص٣٧) وقال المجلسي (رضوان الله تعالىٰ عليه) ـ مؤلف البحار ـ : «انّ المعاد الجسماني ، مما اتّفق عليه جميع المليّين وهو من ضروريات الدين» . (البحار : ج٧ ص٤٧ ، ٥٣) .

٢) الاسراء [١٦] الآية ١٤ .

٣) الاسراء [١٦] الآية ١٣ .

٤) الكهف [١٨] الآية ٤٩ .

خائنة الأعين ، فاذا انتقش على النفس صور الأعمال الصادرة عنها بايجادها إيّاها ، لا بالتصوير عليها بعد الوجود ، فكل ماصدر عنها يُضبط عليها ويمتنع غياب شيء صادر عنها ﴿ **مايلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد** ﴾[١] ، يراقبونه في الخيرات ويعتدّونه في الشرور ، فتتشكل النفس شيئاً فشيئاً على أحسن الصور بتراكم الحسنات أو على أسوئها بتراكم السيئات وتتجلى كما هي يوم تبلى السرائر ﴿ **وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون** ﴾[٢] .

ويمكن ان نضرب مثالاً يقرب الفكرة الى الذهن مع التفاوت الجوهري بين المقامين ، انك في أي حال تكون الآن تقدر أن ترجع الى نفسك بتوجه وعناية الى الاعمال السابقة فتراها حاضرة لديك ، وانك فعلت في الأمس أو قبله - مثلاً - أفعالاً في زمان كذا ومكان كذا فتراها بجميع الخصوصيات وكأن الأعمال حاضرة عندك وتورثك النشاط أو الحزن - مثلاً - ، هذا عند مراجعتنا الذاكرة وحضور صور الأعمال ، فكيف بذاكرة انسان ذلك العالم وحضور نفس الأعمال تجسّماً مرتبطاً معك ربطاً ، وعندئذٍ تنبثق مسألة الميزان وما يوزن به ويُحاسب معه بعد وزن تلك الأعمال ، فكما ترى ترتبط تلك المسائل (الكتاب والميزان والحساب) ربطاً خاصاً .

الميزان يوم القيامة :

اذا عرفت معنى الكتاب في الجملة؛ فلابد من توزين ذلك المكتوب المضبوط حتى يعلم المقدار ويجازى حسبه ، فمن ثقُلت موازينه وكان له الخير الكثير في الميزان فهو في عيشة راضية ، ومن خفّت موازينه بأن لم يكن له شيء لائق به فامّه ومرجعه هاوية[٣] .

---

١) ق [٥٠] الآية ١٨ .

٢) الزمر [٣٩] الآية ٤٨ .

٣) «فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وامّا من خفّت موازينه فأُمّه هاوية وما أدراك ماهي نارٌ حامية» . (القارعة [١٠١] الآية ٦ - ١١)

من المعلوم أن ميزان كل شيء ومقياسه بحسبه ، فاذا أردنا توزين الفواكه ـ مثلاً ـ فوحدة الوزن هو الكيلو ، فيجعل الثقل في طرف والموزون في طرف آخر ، ومقياس الطول المتر أو الذراع أو الانج ـ مثلاً ـ ، وميزان الحرارة للبدن شيء آخر ، وللهواء ميزان خاص به وكذا السرعة والنور وكذا ميزان حركات الأجرام السماوية كالشموس والأقمار والنجوم وأشعتها وروابطها ، اذن فلكل شيء ميزان خاص يقايسه ويسانخه.

فكذلك ميزان الأعمال لابد وان يكون متناسباً مع مايوزن به فيمكن توزينها به، وهو جعل أفضل الأعمال وأشرف النفوس في نقطة ثم مقايسة الأعمال والنفوس بها ، فكلما كان أقرب اليه وأنسب فهو أثقل وكلما كان أبعد فهو أخف كما يقاس ويوزن العلم والاستعداد في الطالب بما يقرب من هذا .

وأشرف النفوس وأفضل الأعمال نفس النبي والوليّ (عليهم الصلاة والسلام) وأعمالهم ، والىٰ ذلك أشاراتْ روايات الباب من قول النبي ﷺ لعلي عليه السلام : **«أنت ميزان يوم القيامة»** ، فانه عليه السلام الامام المقتدىٰ به ، فكلما كان عمل من يتّبعه ويقتدي به من شيعته أقرب الىٰ أعماله ، ونفسه أقرب الىٰ نفسه الشريفة ، فهو أثقل ، وكلما كان أبعد فهو أخف ، وذلك عندنا غير مختصّ به عليه السلام بل يعمّ سائر الأئمة عليهم السلام بل نفس النبي[1] ﷺ بل وللنساء ميزان خاص بهنّ وهي «الصدّيقة الطاهرة الشريفة المعصومة فاطمة الزهراء عليها السلام» وأعمالها ، وهي سيّدة نساء العالمين بنت رسول الله وأمّ أبيها ، فكلما كانت نفس امرأة مؤمنة وأعمالها أقرب اليها فميزانها أثقل ، وكلما كانت أبعد فهي أخف.

---

١) عن هشام بن سالم قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزوجل : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفسٌ شيئاً» . قال : هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام . (البحار : ج٧ ص٢٤١)

والوزن يومئذٍ الحقّ ، فكل انسانٍ يأتي بما حصّل ، ويُقاس بأعلىٰ متحصَّل ويوزن ويرىٰ عمله وجزاءه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره** ﴾[١] .

الحساب السريع :

فاذا حشر الانسان مع أعماله خيراً كانت أو شراً ، فجاءت أعماله حاضرة أمامهُ متجسمة متصوّرة فيراها بأمّ عينه ، ثم قيس ذلك المكتوب المخطوط مع نوع أعلىٰ منه فعرف وزنه ومقدار القرب والبعد به ، لاسيما بعد ملاحظة روح الأعمال أي (النيّات) فتعيَّن تلك النيات مقدار القربة الىٰ الله تعالىٰ ، وبسببه يتحدّد الوزن خفة وثقلاً ، ويتناسب الجزاء ثواباً وعقاباً ؛ وعندئذٍ يقع الحساب السريع ، فكل انسان يرى جميع ما صدر منه متحصّلاً موجوداً . هذا ولايمكن ان يرتبط العمل الصادر عن أحد بشخص آخر ويلحق به ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ** ﴾[٢] ، فقد يسعد بها ، فانها الحسنات تورث الجنة ونعم القرار ، وقد يحزن ويتمنىٰ : ﴿**لو انّ بينه وبنيها أمداً بعيداً**﴾[٣] ولايمكن له ذلك التمني ، فان الربط صدوري والتعلّق نحو علّي .

واذاً فبملاحظة جميع الأعمال تعطى النتيجة حفظاً للتناسب ، فان الخير لاينتج شراً ولا يمكن ان تنعكس المعادلة فيعلم بذلك حكمه وانه من أهل الجنة أو أهل النار ، أو لابد أن ينتظر رحمة ربه وغفرانه لعلّه يغلب جانب الخير وينتهي الىٰ السعادة ، فان مسألة الرحمة والغفران وكذلك العفو والشفاعة لاترتبط بالحساب وحده ولتلك المسائل مبادئ اخرىٰ من الله تعالىٰ : ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذّب من**

١) الزلزلة [٩٩] الآية ٧ ـ ٨.
٢) الأنعام [٦] الآية ١٦٤ .
٣) آل عمران [٣] الآية ٣٠.

يشاء ﴾[1] ، ولكن الحساب السريع[2] هو الربط والتناسب بين الأعمال ونتائجها ، وقد يكون بالاعداد الرياضية أو بالآلات الألكترونية الحسّاسة أو أدقّ منها ، بل هي عينية ونفسية على نهاية السرعة المتناسبة ، ولذلك لايعرف كل أحد نتيجة حساب الآخر ، حتىٰ لو كانا قائمين مقاماً واحداً بل وحتىٰ لو كانا ـ مثلاً ـ متلاصقين ومتجاورين .

الصراط علىٰ النار الىٰ الجنة :

بعدما علمت ان الصراط المستقيم الذي هدىٰ الله تعالىٰ عباده اليه هو الشريعة الاسلامية المطهّرة الحقّة المتمثلة بالأئمة الاثني عشر ﷺ ، فانّ الاستقامة عبارة عن أقرب الطرق بين النقطتين (المبدأ والمنتهىٰ) ، والانسان عندما صار مكلّفاً وميّز بين الأمور فأقرب الطرق منه الىٰ الله تعالىٰ والىٰ السعادة المطلقة والفوز العظيم هو هذا الطريق ، ولو كان غيره أقرب لكان يجب علىٰ الله تعالىٰ ان يعرّفه ويهدي اليه عباده من جهة اللطف وامتناع البخل في ساحته ومنع الفيض الممكن .

هذا ، وتجد في روايات الباب توصيف هذا الصراط اضافة علىٰ مافي القرآن الكريم بأنّه في القيامة وانه ممدود علىٰ النار منصوب فوق جهنم وقد اشتعلت النار المضطربة فيه ، وأنّه أحَدُّ من السيف وأدقّ من الشعر[3] ، والعباد لابدّ وأن يعبروه الىٰ الجنّة الواقعة في انتهاء السبيل ، فكان أحد طرفيه المحشر ، والآخر الجنّة ، والنار تحته ، ولا طريق الىٰ الجنّة إلاّ منه .

وكثير من العباد يعبرونه كالبرق الخاطف وجمع كالطائر وآخرون كالماشي

---

١) آل عمران [٣] الآية ١٢٩ .

٢) «انّ الله سريع الحساب» (المائدة [٥] الآية ٤) .

٣) قال رسول الله ﷺ : ...ثم يوضع عليها صراط أدقّ من الشعر وأحَدّ من السيف.(الكافي:ج٨ ص٣١٢ ح٤٨٦)

سريعاً وغيرهم بطيئاً حتىٰ ينتهي الىٰ جمع معلّقين به من الأيدي والأنامل أو الأرجل أو من شعر الرأس وحتىٰ من شعر أهداب العينين ... (كما ترىٰ في روايات متعددة[١])، ومنهم من يعبرونه الىٰ نهايته ، ومنهم يسقطون في النار ويبلعهم الزفير.

هذا الصراط وبهذه الأوصاف قد يستبعد وجوده الانسان في يوم القيامة وانّه كيف يمكن أن يكون أحَدّ من السيف وأدقّ من الشعر بل وأحرّ من النار ، والانسان يعبر عليه أو يعلّق دون ان ينقطع أو لاتحرقه نار جهنّم .

إلاّ أنّ التأمّل في الأوصاف يكشف الحقيقة ويُظهر الصورة الصحيحة لهذا الصراط وانّه تجسّم لنفس الصراط الذي عرفته في الدنيا فانه لاسبيل الىٰ الآخرة إلاّ أن يجيء الانسان في الدنيا ويهبط اليها ، والنار المضطربة الجاذبة هي نفس عوامل العصيان والانحراف عن الحق ، وأفراد الانسان في هذا العالم قد يعبرون ويتجاوزون عن العصيان بلا تأمّل وترديد كالبرق الخاطف ، وهناك عباد لايعصون اللّه تعالىٰ ، وهكذا الىٰ من يعصيه بالأيدي أو الأنامل أو الأرجل أو شعر الرأس وهكذا .

فاذا تجسّمت هذه الحقيقة في الآخرة بما هي في الواقع وظهرت نفسيّة الانسان كتجسّم سائر الأعمال وحضورها تجده كما وصفته روايات الباب فلايكون الأمر تمثيلاً وتأويلاً بل بيان لواقع الحال وحقيقةً تبلى سريرته وتنكشف نفسيته ،

---

١) نذكر بعضها :

١ ـ ... مرّ علىٰ الصراط كالبرق الخاطف اللامع .. (وسائل الشيعة: ج ٥ ص ٣٨٧)

٢ ـ ... ان له جناحين أخضرين يطير بهما علىٰ الصراط كالبرق الخاطف .. (وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٣٥٢)

٣ ـ ... تمرّ علىٰ الصراط مرّ السحاب .. (وسائل الشيعة : ج ١ ص ٣٤٣)

٤ ـ ... يمرّ علىٰ الصراط كالريح العاصف .. (وسائل الشيعة : ج ٨ ص ٨٠٤)

٥ ـ قال الصادق عليه السلام حول الصراط : هو أدقّ من الشعر وأحَدّ من السيف فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق، ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرّ عليه ماشياً ، ومنهم من يمرّ عليه حبواً، ومنهم من يمرّ عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك منه شيئاً . (تفسير القمي : ج ١ ص ٢٩)

وأفراد الانسان يعبرون عنه ـ علىٰ اختلاف ـ: أليس الحق والباطل والمميز بينهما وهو السبيل الى الحق أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر في موارد كثيرة ، فمن وجد الحق وأخذه بسرعة هو الذي يعبّر عنه في الآخرة بسرعة علىٰ حدّ ماعبّر عنه في الدنيا في مقام العمل فتأمّل تعرف حقيقة الأمر.

الجنة والنار:

الجنّة والنار هما آخر المنازل للانسان وقد وصفهما القرآن الكريم بما تعملون من أعلىٰ مراتب النعم وأشدّ صور العذاب ، وانّ في الجنة ﴿ **ماتشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين** ﴾[1] ، ﴿ **لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾[2] وانّ فيها مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ونزّل أصحاب النار السموم والحميم ... كما ورد كل ذلك في الآيات الكثيرة ، انّما الذي لابدّ أن نشير اليه هنا هو أنّ كلاً منهما ذات مراتب ودرجات ، وانّ لكلّ انسان وكل عمل مرتبة ودرجة متناسبة وكما انّ بين العمل والجزاء ـ ثواباً وعقاباً ـ رابطة خاصّة تشبه العلّية ، أي ان الانسان بنفسه هو الذي يوجب تحقّق نعيم خاص في الجنة وعذاب في النار حسب عمله ، لا بمعنىٰ أنّ ذلك تشبيه وتأويل بل جزاء بما كانوا يعملون جزاءً وفاقاً ، ولا أنّ نفس العمل هو النعمة أو هو العذاب فانّ ذلك يرجع الىٰ انكارهما بل هما من أدقّ المعارف الإلٰهية وانّ وجودهما في القيامة والآخرة من مسلّمات الأديان بل قطعيات العلم ، فانّ تلك النار هي ﴿ **التي وقودها الناس والحجارة** ﴾[3] الحجارة التي هي قلوبهم ﴿ **كالحجارة أو أشدّ قسوة** ﴾[4].

وأما البحث بصورة تفصيلية عن ماهية الجنّة والنار وأوصافهما فلابدّ وأن يُعلم

---

١) الزخرف [٤٣] الآية ٧١.
٢) ق [٥٠] الآية ٣٥.
٣) البقرة [٢] الآية ٢٤.
٤) البقرة [٢] الآية ٧٤.

من النقل الصادق ، وقد وقع البحث عنهما في القرآن الكريم بتفصيل شامل لم يُترك شيء منه ، وعرفت في أوّل بحث المعاد أنّ منتهىٰ الحركة والسكون وآخر الاستعداد: الفعلية ، فاذا كانت الجنة والنار واقعتين في آخر منازل حركة الانسان تبعاً لحركة العالم ، فهما علىٰ وجه الاطلاق والفعليّة والكمال ، فلاتجد في جنة الخلد ضعفاً ولا نقصاً ، لا في نعمها ولا في مُنعمهما ، فليس فيها الكسل والهرم والمرض ... الخ ، ولا فساد ولا اختلال في الفواكه أو الفرش أو الأسرّة وغيرها ، وكذا لاتجد في نار الأبد النوم والراحة فانّ طبع تلك الجنة والنار قائم حسب نظام الخلق ومقتضىٰ وجودهما علىٰ الشروط والظروف والاطلاق والكمال من كل جهة .

وبذلك ينحل ما قد يستشكل بأنّ الاطاعة أو العصيان في زمان محدود كيف يجازىٰ بالجنة والنار المطلقين وانّ ذلك لايناسب العدل كما ذكرنا من قبل ، وسنشير اليه في مسألة العدل انشاء الله تعالىٰ .

واذا تأمّلت في ذلك فلعلّك تعرف وجود ﴿ رضوان من الله أكبر ﴾[1] وأفضل من الجنة ونعيمها فان رضوان تعالىٰ أقرب الى الكمال المطلق الذاتي من النعيم المخلوق المعلول وذلك ميسور في طرف السعادة وانتهاء طريق الحق والخير والحركة اليه ، فللانسان أن يتّصل بمرحلة (رضوان الله) الأكبر من كل نعيم ، وذلك هو الفوز العظيم ، رزَقنا الله تعالىٰ وايّاكم تلكم النعم ان شاء الله تعالىٰ .

هذا كلّه حسب نظام المحاسبة وقوانين الخلقة وجنود الله تعالىٰ في السماوات والأرض أي حسب مجاري الطبيعة في انحاء العالم الطبيعي وما وراءه أي العالم الملكوتي والنفسي والعقلي علىٰ مافصّل في محله .

---

١) التوبة [٩] الآية ٧٢.

الغفران والرحمة والشفاعة :

أما تكفير السيّئات وغفران الذنوب ورحمة الله تعالىٰ على عباده المذنبين بل علىٰ المطيعين بغض النظر عن عوامل العذاب واعطاء الحسنات أو ارتفاع درجات المطيعين أكثر ممّا يستحقونه وأمثال ذلك فمبادئها مسائل أُخرىٰ في مجال أوصاف الله تعالىٰ ، فانّه يفعل مايشاء ويقدر ، ﴿**يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله غفور رحيم**﴾[1]كما أنه أشدّ المعاقبين وأسرع الحاسبين[2] وأحكم الحاكمين[3] ، والكمال البحت المطلق لابدّ وأن يتجلى في كل من أوصافه الذاتية وغيرها ، وتلك المسائل ترجع الىٰ كمالاته المتناسبة وتجلّيات صفاته الاخرىٰ ، كما فصّل في محله .

وبذلك تنحل مشكلة الشفاعة باذنه تعالىٰ وانه لاينافي الحكمة في تشريع الأحكام ولزوم الأمتثال ، ووجوب عقاب العاصي وثواب المطيع ، فانّ الشفاعة باذن الله ترجع الىٰ بعض الأوصاف الاخرىٰ ولا ترتبط بالحكمة البالغة ونظام التشريع التابع لنظام التكوين علىٰ التفصيل المذكور في التفاسير لاسيما ما عن الاستاذ العلاّمة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان[4] (أدام الله ظلّه) وحيث انّ تلك المسائل قد تم بحثها في الكتب الروائية والتفسيريّة ، فإننا نختم مسألة المعاد باجمال وعليك بالكتب المفصّلة ، ولله الحمد[5] .

هذا تمام الكلام في الأصول الثلاثة من المعارف الاسلامية الكلّية ولكن بقيت هنا مسألتان لابدّ أن نتعرّض لهما انشاء الله تعالىٰ وهما : العدل والامامة .

---

١) آل عمران [٣] الآية ١٢٩ .

٢) «الإله الحكم وهو أسرع الحاسبين» (الانعام [٦] الآية ٦٢) .

٣) «أنت أحكم الحاكمين» (هود [١١] الآية ٤٥) .

٤) انظر الىٰ بحث الشفاعة في«الميزان» : ج ١ ص ١٥٤ الىٰ ٢٧٠ ذيل آية ٤٨ من سورة البقرة[٢].

٥) تم هذا البحث في الساعة السابعة والربع بعد الظهر من يوم ٢٨ / رمضان / ١٣٩٨ هـ . ق.

الفصل الرابع :

العدل

الكلام في العدل الشامل :

لا إشكال في أنّ العدل من أوصاف الله تعالىٰ لابدّ أن يُبحث عنه لدىٰ الكلام في صفات الواجب تعالىٰ في مسألة التوحيد كما أشرنا الىٰ بعضها هناك ، إلاّ أنّ هناك أمراً آخراً وراء امتياز البحث عنه الىٰ حدّ جعله من الأصول، ألا وهو الكلام في مسألة الجبر والاختيار وهي من أقدم المسائل الكلامية انتهىٰ ببعضهم الأمر الىٰ انكار العدل، فانه اذا قيل للجبريّة اذا كان الانسان في كل الأفعال مجبوراً من غير اختيار فكيف يعاقب العاصي ويثاب المطيع وكل منهما مجبور علىٰ فعله ؟ وذلك لاينسجم مع العدل الألهي ، اضافة الىٰ قبحه عقلاً ؟ فأنكر الجبريون الحسن والقبيح العقليين علىٰ خلاف ضرورة العقل ، وكذلك أنكروا العدل الألهي (أعاذنا الله منه) وقالوا : إنّ عقاب العاصي المجبور لا بأس به ؛ والحسن مايفعله تعالىٰ ، والقبيح مايتركه من غير درك للعقل في ذلك .

نعم من خرج عن سبيل الحق ضلّ ، ومن دخل البيت من غير الباب تاه وسقط ، فانّ علوم النبوّة الألهية لابدّ أن تؤتىٰ من بابها وهو أهل بيت النبوّة . فقد قال رسول الله ﷺ : «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أتىٰ الباب وصل ، ياعلي انت بابي الذي أوْتىٰ منه ، وانا بابُ الله ، فمن أتاني من سواك لم يصل اليّ ، ومن أتىٰ الله من سواي لم يصل الىٰ الله»[1] .

---

١) وسائل الشيعة : ج١٨ ص٥٢ ، وهذا الحديث متواتر بين العامة والخاصّة ، كما قال صاحب الوسائل.

وليس المقام موضع الكلام في أصل مسألة الجبر والتفويض على تفصيلها العريق من طريق أهل بيت النبوّة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومعنىٰ قول الصادق: «لاجبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين»[1]؛ جبر وتفويض، وكثرة الكلام في ردّ المجبرة واثبات العدل، وان الله تعالىٰ بعقابه العاصي لايظلم، انظر التفصيل في بحث العدل.

ولكن المدّعى في أصل مسألة العدل أوسع ممّا عرفت في ردّ الجبريين من عدله تعالىٰ في القيامة ومقام الجزاء والثواب فلنشر اليه.

وهو: أنّ الله تعالىٰ عادل علىٰ الاطلاق فيكون التكوين والخلقة بأجمعهما من مظاهر عدله، وكذلك التشريع، ويتبعه الجزاء في القيامة. ولابدّ من معرفة معنى العدل أوّلاً حتىٰ يتّضح في مظاهره؛ وأهمّها ما أشرنا اليه: العدل هو التناسب وكون الشيء في مقامه وموضعه حال المقايسة مع سائر الأشياء المحيطة به أو المركّبة منها، مثلاً: في جسم الانسان المعتدل ترىٰ كل عضو في موضعه ومع ذلك تراه متناسباً مع سائر الأعضاء صغراً وكبراً، وكذلك قامة الانسان من غير طول أو قصر، وكذا الأمر في بناء منزل أو مدرسة أو مستشفىٰ أو كليّة أو غير ذلك من المراكز الإدارية، لابدّ وأن يكون البناء متناسباً حسب المقصد، ففي البيت العائلي يحتاج الىٰ حجرات وغرف حسب اقتضاء المعاش الىٰ المطبخ والمأكل وغرفة النوم وغيره وكل ذلك علىٰ وضع خاص، وفي المدرسة زائداً علىٰ ماذكر يحتاج الىٰ مَدرس ومكتبة وغير ذلك، وفي المستشفىٰ يحتاج الىٰ غرف أُخرىٰ كغرفة للعمل الجراحي وغرفة للوسائل الخاصة والدواء الىٰ غير ذلك، وكذلك الكليّات ومراكز الادارات والمؤتمرات، فترىٰ أنّ الاعتدال في ذلك كلّه هو التناسب وكون كل شيء في

---

١) الكافي: ج١ ص١٦٠ ح١٣.

موضعه ، فالعدالة وضع الشي في موضعه[1] واطلاقه علىٰ الصفة النفسانية أيضاً لكونها في موضعها حسب التناسب دون افراط أو تفريط في الأوصاف كما فصّل في علم الأخلاق ، وعليه : فالعدالة غير المساواة ، فانّ الأوّل : التناسب ، والثاني : التساوي .

العدالة غير المساواة :

وللتوضيح في المقام لابدّ من ذكر مثال : ان كان لك ابناء وبنات وهم مختلفون في السن طبعاً ، فعليك تأمين معاشهم من المسكن والمأكل والملبس ، فاذا أردت تهيئة اللباس لهم فتذهب بهم الىٰ السوق لتشتري لهم ملابس ، فتقول لصاحب الدكّان : أريد لهم ملابس كلّها علىٰ السواء من جهة الطول والعرض ونوع الخياطة واللون وجنس النسيج والقيمة وأيضاً أُريد مراعاة العدالة بين الأولاد ومساواتهم ، فينظر اليك البائع نظرة خاصة وهو يقول اذا كنت تريد المساواة فعليك أن تشتري لأجمعهم الثياب من غير تمييز ، والعدالة تقتضي أن تشتري لكل منهم مايناسبه فان ثياب البنات غير ثياب البنين وثوب الكبير لايناسب الصغير ولا العكس أيضاً وكل منهم يحب لوناً خاصاً حسب ذوقه قد لايحبه الآخر ويحب خياطة دون أُخرىٰ ، فعليك أن تشتري لكل منهم مايناسبه حتىٰ تكون عادلاً من جهة ومراعياً للمساواة من جهة اخرىٰ واجتماعهما في مثل الأمثلة أورث الاشتباه .

العدالة في الخلق والتكوين :

اذا عرفت ماقلنا من انّ الله تعالىٰ عادل في الايجاد والخلق بمعنىٰ انه أعطىٰ كل شيء ، حسب اقتضائه ـ الوجود ، وجعل كل شيء في موضعه . فما ترىٰ في نظام السماوات والأرض وكيف هو يكون كائن علىٰ أدق مراتب العدل بحيث لو تغيّر

---

١) قال مولىٰ الموحدين علي عليه السلام : العدل يضع الأمور مواضعها . (نهج البلاغة : قصار الحكم رقم ٤٣٧)

موضع شيء منها لتتشتّت الأمور الىٰ حد تختل الحياة علىٰ الكرة الأرضية لاسيما حياة الانسان وتكامله ، أي الغاية القصوىٰ والغرض الأعلىٰ من خلقها . فلو فرضت أن الأرض أقرب الىٰ الشمس في مدارها أو أبعد منها أو فرضتها أسرع في حركتها أو أبطأ مما هي عليه بشيء ما ، اختلت شروط الحياة بوجه غريب ، وكذلك النظام في حياة الجماد والنبات والحيوان حتىٰ تنتهي الىٰ مسائل أدقّ في الخلقة من النُظم الحاكمة علىٰ المجردات ودرجاتها حتىٰ تنتهي الى ما في أرواح أفراد الانسان ونفوسهم ، فان ذلك كلّه علىٰ أدقّ حساب وأحسن نظام وأعدل خلق وايجاد .

هذا عين العدل :

والعدل والتناسب شيء تراه واضحاً ، لكن ترى ان هذا لايتمّ الاّ اذا نظرت الى كل النظام ومن جميع جهاته لا أن تنظر الىٰ جزء منه منفرداً عن بقية أجزاء النظام المترابطة فيما بينهما ، ومن هنا يحصل الاشتباه في بادئ نظرنا ونحسب شيئاً ما خلاف العدل فنقول : كيف يختلف أفراد الانسان في اللون والحجم والحسن والسلامة الطبيعية بل في الفهم والاستعداد والقوى الفكرية ؟ «وسيأتي الكلام في الاختلافات الناشئة عن ظلم بني الانسان بعضهم للبعض» وكذلك فيما يصيب الانسان من ناحية نظام الخلقة من أنواع الزلازل والفيضانات والسيول فيهلك قوماً دون آخرين ؟ فنقول أين هذا من العدل ؟ فإنّا نرىٰ ظلماً فاحشاً علىٰ المتولد ناقص الخلقة والقاصر في القوى الفكرية ومن أُصيب بالعاهات .

ولكن اذا تأمّلت في الحادث وعلله المترتّبة المتسلسلة ، ونسبته الىٰ تركه ولتلك العلل وما ينتفي من انتفاء العلل المتسلسلة تعرف أنّ ذلك عين العدل وحقّه ، فان الانسان المولود في المنطقة الحارة أو المعتدلة ، والمولود بقرب المناطق القطبية وكذا الحيوانات في تلك المناطق تراهم يختلفون حسب تناسب مقتضيات الجوّ والطبيعة والأرض وغيرها في الحجم واللون والضعف والقوة ، والحاكم علىٰ التوالد

والتناسل قوانين عامة ثابتة في كل من الزوجين في كل مكان وزمان فيتولّد الولد بمباشرة الوالدين ومناكحتهما مع تأثير الألاف بل الملايين من القوانين المرتبطة بالحياة في مراتب مختلفة للنطفة والجنين حتىٰ الولادة واللبن والمحيط الطبيعي للطفل وسائر الشروط للتكامل .

وتلك القوانين الحاكمة ضامنة للحياة والتكامل الىٰ الغرض النهائي ، واختلاف المناطق المورثة للاختلاف أيضاً ناشئة عن قوانين اخرىٰ ضامنة للغرض مثل كروية الأرض ودورانها حول الشمس في مدار خاص وعلىٰ سرعة خاصة كما تعرف . فاذا تصوّرت ارتفاع الاختلاف فلابد من ارتفاع القوانين العاملة لها الموجبة لإمكان أصل تحقق الحياة علىٰ الكرة الأرضية ، فترىٰ انه سوف يختل كذلك أصل الغرض في خلقة العالم .

وكذا ماتراه من أنواع البليّات من الزلزلة والسيل والفيضان وأمثالها تراها ناتجة من عوامل كثيرة لأصل الحياة علىٰ كرة الأرض من اضاءة الشمس وتبخير ماء البحر ونزول الماء من الغيوم على مناطق مختلفة حسب قوانين دقيقة وجريان الماء في الانحدار واتصال البعض بالآخر وكثرة السرعة والقدرة بالحركة والانحدار على قوانين عامة اخرىٰ حاكمة علىٰ شراشر الخلقة ، وكذا الأبخرة الداخلية للأرض عند خروجها علىٰ القوانين الخاصة المورثة للزلزلة أو غير ذلك من عللها الاخرىٰ ، وكذلك اختلاف درجات الحرارة والبرودة في المناطق الناشئة من قوانين حركة الأرض ومدارها علىٰ وجه خاص قائم على قوانين خاصة تورث حركة في الهواء وتحقق الريح ، وعند شروط اخرىٰ : الفيضانات . فيبتلى أفراد البشر بل غيرهم من الحيوانات والنباتات بالنقص أو الهلاك والدمار ، ويتوهّم الانسان أنّ ذلك ظلم بهم مع انّ ارتفاع ذلك بارتفاع علله يورث انعدام الحياة علىٰ الأرض وامتناع تحقق الغرض الأصلي من الخلقة .

وعلىٰ لسان العلم والفلسفة : لابدّ من تحمّل اللوازم والملابسات في دار يكون التصادم والتزاحم طبعه الأولي أي دار المادة وعالم الماديات .

مع انّ ترك خيرٍ كثير لشر قليل شرٌّ كثير بنفسه ؛ وعليه فالعدل شامل لجميع انحاء الوجود ، والكون ، والتناسب بالنسبة الى الغرض النهائي موجود في شراشر التكوين ، والنظام بأجمعه أحسن النظام وأنسبه وأعدله .

دليل علىٰ المدّعى :

هذا كلّه كان هو المدّعى ، والدليل عليه بعدما تَطَّلِع علىٰ التناسب في الخلقة حسب ماأثبتته العلوم الطبيعية السماوية والأرضية في كل من الجماد والنبات والحيوان الى ان تصل الى الانسان من القوانين الكلية الحاكمة وروابطها بعضها مع بعض والفعل والانفعال بعضها عن بعض حسب قواعد اخرىٰ دقيقة منظّمة كما لايخفىٰ علىٰ من اطّلع علىٰ شيء من تلك العلوم حتىٰ المتداولة منها .

الدليل بعد ذلك : انه لو أمكن وجود نظام في التكوين والايجاد ، أصلح وأحسن من هذا ، لكان علىٰ الموجد تعالىٰ خلقه وإيجاده وإلاّ يلزم البخل ومنع الجود والإفاضة مع امكانه على مافصّل في محله بعنوان قاعدة : (امكان الأشرف) ، فان ذلك أصل كلّي يعطي امتناع وجود الأخس مع امكان الأشرف ، فالموجود في كل مرحلة أشرف وأفضل مايمكنه أخذ الوجود والتلبّس بالتحقق ولا حدّ في أصل الفيض والإفاضة والاشراف كما تعلم .

الله تعالىٰ عادل في التشريع :

لعلّك تعرف أنّ العدلية هم الذين يعتقدون بتبعية الأحكام لملاكاتها وانه لا

جزاف في التشريع ، بمعنىٰ أنّ كل حكم شرعي تكليفي أو وضعي لم يُشَرَّع إلاّ متناسباً مع مصلحته ، فما لم يكن في فعل مصلحة على حدّ الإلزام لم يوجب ، أو مضرّة ومفسدة كذلك لم تحرم ، واذا كانت علىٰ حدّ الرجحان استحب ، وكذلك المفسدة اذا كانت علىٰ حدّ رجحان الترك حُكم بالكراهة ، وكذلك الصحة والفساد في العقود والايقاعات أو الجزئية والشرطية والمانعية فانّ في جعل ذلك كلّه ملاكاً علىٰ حدة ، والحكم مناسب له ، فلم يجعل مافيه ملاك المنع أو الخلل شرطاً أو جزءاً ولا عكس بل في الجزئية أو الشرطية أيضاً حسب المراتب من الدخالة في تحقق نفس المهيّة أو كمالها ، فالجعل والتشريع لم يكن جزافاً وبلا ملاك ، بل علىٰ وفق العدالة والتناسب الكامل في نفس الجعل وأصله وفي الدرجة والوضع والتكليف. هذا بحسب الحكم والأمر والنهي ، وهكذا الأمر في مرحلة الامتثال والاتيان بالمأمور به ، فانه تعالىٰ عادل ﴿ لايكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾[1] وكذلك طرف الامتثال عند التزاحم والتعارض فلايجب عليه في العمل إلاّ الأهم ، وان ترك فالمهم على مافصّل في علم الأصول في مسألة التزاحم والترتّب وسائر القواعد الكليّة السارية في جميع الموارد ، فهو ـ تعالىٰ ـ عادل في التشريع وجعل الأحكام والقوانين من غير فرق بين العبادات والمعاملات والعقود بل حتىٰ الايقاعات كذلك ، ومن غير فرق بين البسائط والمركبات والمخترعات الشرعيّة أو المعتبرات العقلائيّة التي أمضاها الشارع المقدس أو تصرّف فيها توسّعة وتضييقاً فانّ في ذلك كلّه ملاكاً خاصاً متناسباً مع المجعول والمشروع علىٰ حساب دقيق يعجب الانسان ، لاسيما حال ملاحظة الحدود والمراتب حتىٰ في أبواب الحدود والديات وغيرها.

ما الدليل علىٰ عدالة الله تعالىٰ:

والدليل علىٰ ذلك بعدما ترىٰ من المصالح الظاهرة التي يعرفها كل أحد في

---

١) البقرة [٢] الآية ٢٨٦.

كثير من الأحكام الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحكومية بل والعبادية الاجتماعية بل الفردية ، انّ كل مايصدر عن المبدئ الأعلىٰ العالِم الحكيم القادر يمتنع أن يكون بلا علّة غائية ، كامتناع الصدور بلا علّة فاعلية فانّ الفعل الجزاف بلا غاية لايصدر عن مبدأ العلم والقدرة ، والتشريع والجعل فعل صادر عنه تعالىٰ تكويناً، فانه تعالىٰ هو الذي حرّم وحلّل وهو الذي أوجب أمراً أو جعل شيئاً جزءاً للواجب أو شرطاً أي أوجد تلك الأحكام في عالم الاعتبار والايجاد والتكوين فان ذلك لم يكن بلا علّة وغاية كما عرفت في عدالته تعالىٰ في التكوين .

والغايات في الأحكام هي الملاكات أي المصالح والمفاسد والخواص الموجودة في المتعلّقات . ولا نعني بالعدالة في التشريع إلاّ هذه التبعيّة وهذا التناسب.

لمن الغاية ؟

ومن العدل في المقام الاشارة الىٰ أنّ الأحكام المجعولة وضعاً وتكليفاً لطفٌ من الله تعالىٰ لاترجع المنافع فيها إلاّ الىٰ العباد ولا يصون من المفاسد إلاّ نفس العامل بالحكم ، فلن يضرّ الله شيئاً وان كفر من في الأرض جميعاً أو فسق فانّ الكفر والفسق يورث الفساد والهلاك للنفس ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾[1] .

نعم هناك أمرٌ آخر في غاية اللطف والظرافة في مرحلة الامتثال والإطاعة : فانّ العبد قد يمتثل ويطيع رغبة في المصلحة الدنيوية أو الاخروية أو رهبة عن المفسدة كذلك ، ولكن قد يمتثل لمجرد الإطاعة والعبادة من غير نظر الىٰ مسألة الملاك في

---

١) الاسراء [١٦] الآية ٧ .

الحكم ويرىٰ الله تعالىٰ أعظم وأعلىٰ من ذلك وانه القادر على عقاب المطيع أيضاً وان لم يفعل ، بل الرضوان ومصلحة الرضا أقوىٰ المصالح ، ولذّة الإطاعة من أكبر اللذّات وألطفها كما أشار اليه الامام الأوّل مولىٰ الموحدين علي عليه السلام في موارد عديدة من تقسيم عبادة العباد[1] أو قوله عليه السلام : **«ماعبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»** ، رزقنا الله تعالىٰ وايّاكم لذّة تلك المراحل .

ولقد كان لاستاذنا المرحوم السيّد الورع الفاضل السيد حسن الفريد الأراكي (رضوان الله عليه) في المقام مثال : من انّ الأب اذا أمر ابنه أن يشتري من السوق شيئاً من الطعام أو الفواكه مثلاً ؛ فمن المعلوم ان الملاك في ذلك تهيئة الغذاء للعائلة وهو منهم ، فان اطاع واشترىٰ فزائداً علىٰ تأمين المصلحة ، تتقوى رابطة الأبوّة والبنوّة العاطفية ويحسّ كلّ منهما لطفاً خاصاً بالنسبة الىٰ الآخر ، وعند العصيان زائداً علىٰ تفويت المصلحة ينتزع منه تحقير الابن أباه وتركه الاعتناء اليه وفي طرف الأب يرجع الى عظمة روحه وسعة صدره ، وكلّما كان صدره أوسع وصبره أعظم كان الاعتناء بالعصيان أضعف وكانت العقوبة من تلك الناحية أخف ولكن العذاب الحاصل من ناحية عدم وجود الغذاء والفاكهة راجع اليه لايمكن الفرار عنه ، وانت بالتأمّل في المثال والتطبيق مع معرفة الفرق بين الموالي العاديين ومولىٰ الموالي تجد اللطف في المقام .

الله تعالىٰ عادل في الجزاء :

من المعلوم انّ جعل الجزاء جنب جعل الحكم من أهم عوامل العمل به ، فانّ

---

١) قال الامام علي عليه السلام : «ان قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار ، وانّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وانّ قوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار» . (البحار : ج٧٨ ص٦٩)

أكثر الناس يعملون للأجر وفراراً عن العقاب ، والكلام هو هل انّ تلك الحكمة علّة أصل الجعل ، أم ان درجة الجزاء ومرتبته تتناسب مع طاعته وعصيانه ؟ أفهل يمكن أن يعاقب المرتكب للصغيرة عقاباً يناسب مرتكب الكبيرة ، أو يُثاب المطيع في بعض الأوامر ثواب المسلّم نفسه للّه تعالىٰ ومطيعه في جميع الأوامر ؟ فالمدّعىٰ انه تعالى عادل في أصل العقاب والثواب فلا يعاقب المجبور في العمل والمعذور والعاجز ، ولايثيب التارك أو العامل جبراً كما مرّ في علّة صيرورة ذلك البحث من الأصول ، وكذلك هو تعالىٰ عادل في مراتب الثواب والعقاب ودرجاته وفاقاً للعمل ، فالعاصي العامد التارك لأوامره الأصلية المهمّة كالصلاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعاقب بأشد من تارك بعض الواجبات الاخرىٰ عن غير عمد أو عند عمد أحياناً ، كما ان هناك فرقاً بين من ترك الواجب ثم ندم وتاب ، ومن ابتهج بذنبه فانّ الابتهاج بالذنب أعظم منه[1] كما انّ ثواب العبد المطيع علىٰ الاطلاق أعظم من الممتثل في الجملة .

وبعبارة أُخرىٰ : التناسب الدقيق الكامل بين ملاك الحكم الموجب لجعل أصل الحكم ، والجزاء المترتّب علىٰ الاطاعة والتخلّف ملحوظ مراعى لا في جعل أصل الجزاء بل في كل حكم حسب ملاكه من الصلاح والفساد كما ترىٰ ذلك في الاحكام العرفيّة في نهاية الوضوح ، فانه فرق بين قتل النفس المحترمة عمداً لاسيما اذا كان المقتول متّقياً عالماً مجاهداً أو متّصفاً ببعض تلك الصفات وغير العمد كذلك، وبين مطلق القتل والغيبة مثلاً أو السرقة ، وهكذا في كل ذنب حسب اختلاف درجات المورد وشروط المذنب ، فلكل ذنب حتىٰ من شخص واحد عقاب خاص يناسب ذنبه بخصوصيّاته غير عقاب ذنبه الآخر ، كما انّ لكل اطاعة كذلك ثواباً خاصاً يناسب خصوصيّاتها غير اطاعة اخرىٰ .

---

١) قال الامام زين العابدين عليه السلام : «إيّاك والابتهاج بالذنب فانّ الابتهاج به أعظم من ركوبه». (البحار: ج٧٨ ص١٥٩)
وقال الامام علي عليه السلام : «لا وزر أعظم من التبجّح بالفجور» . (غرر الحكم)

وبهذا تختلف مراتب الجنّة والنار وتتفاوت درجات الدركات في الجحيم أو الغرف والنعيم فلا يُظلم أحد فتيلاً ويُجْزَوْنَ بما كانوا يعملون .

هذا هو العدل في القيامة والجزاء ، فهو تعالىٰ عادل علىٰ الإطلاق .

الدليل علىٰ المدّعى:

ولعلّ ذلك من القضايا التي قياساتها معها ولا يحتاج الىٰ ذكر دليل خاص لها فانّ التوجّه الى موضع جاعل الحكم وحكمته وغناه عما سواه كافٍ في الحكم بوجود ذلك التناسب والربط الخاص بين الجزاء والعمل فعلاً وتركاً ، ولكن مع ذلك نشير الىٰ دليل في المقام وهو أنّ الجزاء اذاكان من غير تناسب ورعاية العدالة فامّا ان يكون جزافاً ومن غير علّة رأساً ، وامّا أن يكون من قصد التشفّي وأعمال القهر والغلبة جبراً لنقص وحلاً لعقدة ، وكل ذلك ممتنع عن الغنيّ بالذات المستجمع لجميع صفات الكمال علىٰ ما عرفت في بحث التوحيد .

هذا كلّه حسب مقتضى العدل في جميع المراحل من التشريع والتكوين والجزاء ، ولا يرتبط ذلك بالعفو والغفران والرضوان والشفاعة باذن الربّ ، فان مجاري ذلك كلّه أوصافه الأُخرىٰ ، كما أشرنا اليه من قبل ، رزقنا الله تعالىٰ وايّاكم العفو والرحمة والرضوان «إلٰهنا عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ياكريم فانّ لك النعمة والرحمة ومنك الجود والوجود» .

الفصل الخامس :

الإمامة

الامامة المطلقة العامّة :

قد عرفت أنّ الانسان حرّ مختار يفعل في نفسه وشؤون حياته كيفما يشاء ولا ولاية لأحد عليه . فلا ولاية لأحد علىٰ أحد حسب الأصل الأوّلي، فليس لأحد أن يمنع غيره عن شيء أو يأمره به ولا يجب علىٰ أحد اطاعة غيره في أوامره ونواهيه، فالانسان فعّال لمّا يشاء في دائرة قدرته ، يترك مايشاء ويأخذ ممّا يشاء .

الولي هو الله :

نعم من خلقه كذلك وفطره علىٰ ذلك ـ وهو الله ـ له التصرّف في ملكه وخلقه كيف يشاء ، فكما له الولاية والسلطنة تكويناً في الايجاد والخلقة والموت والحياة كيف يشاء ، فله الولاية أيضاً تشريعاً في الايجاب والتحريم فيطلب منه أشياء ويمنعه عن أشياء ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[1] ، فيجب علىٰ الانسان أن يطيع الرب الخالق في أوامره ونواهيه ويجد نفسه تحت ولاية الرب وحكومته كما هو كذلك في الأمور التكوينية اجباراً وتكويناً ، فالله تعالىٰ وليّ لابد من اطاعته ولا يمكن الفرار من حكومته وترتّب الثواب والعقاب علىٰ الاعمال ، واحاطة قدرته الكاملة فوق قواعد التكوين والتشريع أيضاً مع جريانها فيها ، وهذا ممّا لاكلام فيه مع حكم العقل بلزوم جلب المنافع ودفع المضار ، بل ان الطبع يقتضي ذلك ، والانسان لايعرف جميع تلك الموارد من عند نفسه وبمساعدة عقله ، فلابد من اطاعة العالم بجميع العَالَم علىٰ ما أشرنا اليه في بحث الرسالة ولزوم الواسطة لإعلام الطريق من الله تعالىٰ على

---

١) الاعراف [٧] الآية ٥٤ .

العباد فراجع . أي كما يجب عليه الاحتراز عن الحرارة والبرودة المضرّة وعن التخمة والمرض في التكوين ، كذلك يجب عليه الاحتراز عن المحرّمات والاتيان بالواجبات في التشريع ، فانها أيضاً من التكوين ، والواجبات الشرعية ألطاف في الواجبات العقلية ، بل الأحكام الشرعية كلّها كذلك .

ثم بعد ذلك كلّه ، لعلّ الانسان الظلوم الجهول كفر بربّه وعصىٰ وتخلّف وأخذ بهوىٰ نفسه ومتابعة الشيطان والشهوة حتىٰ مع العلم بالتبعات فيشري دنياه بآخرته ويختار الشقاء والظلم لنفسه وعليها ـ والانسان حرّ مالك لنفسه ـ وحينئذٍ يبدأ بالتعدّي والتجاوز على حقوق الآخرين والظلم بهم حتىٰ في المسائل الفردية، فان البشر يعيشون مجتمعين مرتبطين مع بعض ، وكل ظلم وتجاوز هو بمثابة الجرثومة التي تفسد الجوّ والفضاء الانساني وتمحو شيئاً فشيئاً كرامة الانسان . فعلىٰ الامّة والمجتمع الدفاع عن حقوقهم .

وحيث لايمكن دخالة الجميع في ذلك الدفاع بل لايتصوّر معرفتهم بالاضرار حتىٰ يدافعوا فلابد من مقام يدافع عن حق المجتمع ويتصدىٰ لما لايمكن تصدّي الكل من التصرّف في الاموال العموميّة علىٰ جهة منافع العموم ومحافَظة الحقوق الثقافية والصناعية والطبيعية والعسكرية و ... الخ .

من هو الأحق بذلك الحق :

ومن المعلوم أنّ الأحق بتصدّي ذلك المقام هو من كان أعرف بتلك الحقوق من ناحية العلم بها ، وأصدق وأعدل في مقام العمل من ناحيته ، والاطّلاع علىٰ ذلك على ماهو حقّه لايمكن إلاّ لعلاّم الغيوب ، وامّا من ناحية الناس كما عن طريق الانتخاب ـ مثلاً ـ فنسبيّ مع مافيه من الاشكال الذي سنشير اليه ، ومن ذلك يتّضح أساس المسألة من أنّ الامامة منصب من قِبل الله تعالىٰ ـ كما نفهم من قوله جل جلاله

لابراهيم ﷺ : ﴿ اني جاعلك للناس اماما ﴾* ـ أو من المنتصب من قبله لا انتخابيّ من الناس .

واتّباعه :

وعليه فان الامام الأول والأحق هو الرسول المنتخب والمصطفى من الله تعالىٰ ، العالِم بالحقوق ، العادل فيها ، المنتصب لذلك المنصب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ النبيّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ﴾[١] ، فله التصرّف في كل ماكان لهم التصرف فيه في جهة منافعهم ومصالحهم من الأموال والأنفس والأعراض ، ويجب علىٰ الناس اطاعته واتّباعه في أوامره ونواهيه ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[٢] ، أو : ﴿ أطيعوا الله ورسوله ﴾[٣] في آيات عديدة ؛ هذا من جهة المثبت، وقال تعالىٰ: ﴿ ماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة﴾[٤] ، فانّ نفي الخيار قِبال قضاء الرسول رديف قضاء الله تعالىٰ يثبت ولايته وامامته ، وهذا مقام لايرتبط برسالته ووساطته ﷺ ﴿ وما علىٰ الرسول إلاّ البلاغ ﴾[٥] كما أشرنا اليه في بحث الرسالة وتفصيل الكلام في كتاب : **(الولاية والحكومة)** من مجهودنا **(فقه القرآن)** .

فالرسول ﷺ بعد الله تعالىٰ وليّ علىٰ الناس منصوبٌ من قِبَلِهِ ، له التصرّف في الامور والتقلّب فيها في جهة حفظ حقوق الناس وتأمين منافعهم . وعلىٰ الناس اطاعته واتّباعه فيما يوافق منافعهم الشخصية بل حتىٰ في ما يخالفها بل مطلقاً ،

---

*) البقرة [٢] الآية ١٢٤ .
١) الأحزاب [٣٣] الآية ٦ .
٢) النساء [٤] الآية ٥٩ .
٣) الانفال [٨] الآية ٢٠ .
٤) الأحزاب [٣٣] الآية ٣٦ .
٥) المائدة [٥] الآية ٩٩ .

وهذا المقام كما ترىٰ من ملاكه ودليل لزومه لايقبل الاختتام ، ولايمكن فيه الختام وترك الناس علىٰ شهواتهم المؤدية الىٰ الظلم وتضييع الحقوق ، فلابدّ من بقائه بعد ختم الرسالة ، ولا طريق الىٰ العالم العادل كما هو حقّه إلاّ اللّه تعالىٰ ورسوله المؤتمن الذي لاينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ ، فعليه أن ينصب أحداً لهذا المقام تحفّظاً علىٰ حقوق المجتمع وبقاءً للامّة الاسلامية الانسانية ، وليس له ترك الناس سدى والخروج عنهم وهم حيارىٰ فانه ينتهي بهم ويضطرهم الىٰ الانتخاب وملاحظة الآراء وسيأتي الكلام عنه انشاء الله .

المنتصب :

ولقد نصب رسول الله ﷺ علياً عليه السلام لذلك المقام من قِبَلِ الله تعالىٰ مشيراً الىٰ أنّ ذلك العمل يساوي إكمال الدين وإتمام النعمة ، وان تركه يساوي ترك الرسالة . قال الله تعالىٰ : ﴿ **يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل اليك من ربّك فان لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾[1] ، فانّ الأمر الذي اذا لم يفعل يرجع الىٰ ترك الرسالة لايكون إلاّ الامامة كما عرفت من قبل وفصل في المفصّلات ، وبلّغ الرسول ﷺ في غدير خم علىٰ ما تعرف من حديثه وهو من أعرف وأشهر الأحاديث بين الفريقين[2] والذي أُلّفت حوله الكتب الكثيرة ؛ أشهرها بين المتأخرين موسوعة الغدير للمرحوم العلاّمة الأميني (رضوان الله عليه) مضافاً الىٰ حديث الاطعام[3] وحديث الطير[4] وحديث المنزلة[5] وحديث الحقوق[6] ... الخ ، فراجع

---

١) المائدة [٥] الآية ٦٧ .

٢) قال رسول الله ﷺ : «مَن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه». انظر تاريخ دمشق: ج٢ ص ١ ، ٩٠ طريق حديث الغدير .

٣) انظر الىٰ الروايات الواردة في الآية ٨ من سورة الانسان [٧٦] «ويطعمون الطعام علىٰ حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا...» . (راجع الغدير ج٣ ص١٠٧ الىٰ ١١١)

٤) دَعىٰ رسول الله ﷺ وقد قدّم اليه أنس الطائر : اللّهم ادخل إليّ أحبّ خلقك اليك يأكل معي من هذا الطائر . فدخل علي عليه السلام . (الغدير ج١ ص٢١٣)

٥) قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام : أما ترضىٰ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ ؟!.

المفصّلات لاسيما «غاية المرام» للمرحوم البحراني (رضوان الله عليه) ، والأحصر الأمتن الأدق «المراجعات» للمرحوم (شرف الدين) ، وكأنّك لا تجد مثله في الكتب الراجعة الىٰ هذا البحث ، وهكذا بعد علي عليه السلام الأئمة الأحد عشر ابناؤه وأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله اسماءهم وعيّنهم لذلك المقام علىٰ ماتجد في الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الفريقين(٧) زائداً علىٰ تعيين كل منهم الامام بعده خليفة رسول الله وضامناً لحقوق الأمّة وحافظاً لها .

الأئمة عليهم السلام :

فالأئمّة الاثنا عشر (عليهم الصلاة والسلام) هم الأولياء بعد الله ورسوله ولابد من اطاعتهم ، ولهم التصرّف في مطلق الشؤون التي كان يتصرّف فيها الرسول بامامته ، وهم (عليهم الصلاة والسلام) مصاديق أولي الأمر في قوله تعالىٰ : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم** ﴾(٨)، كما فصّل في محله لا كلّ من تصدّىٰ

← (الغدير : ج ٣ ص ١٩٩).

٦) قالت امّ سلمة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : عليٌّ مع الحق والحق مع عليٍّ ولن يفترقا حتىٰ يردا عَليَّ الحوض يوم القيامة . (الغدير : ج ٣ ص ١٧٧)

٧) وهذه الروايات كثيرةٌ جداً جمعها محمد بن الحسن الحرّ العاملي رحمه الله في كتابه (اثبات الهداة ج ١ ص ٤٣٣ الىٰ ص ٧٣٤) منها هذه الرواية ، نقله في ص ٥٠٠ :

سمعت جابر بن عبدالله الأنصاري يقول : لمّا أنزل الله علىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله «ياأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسولَ وأُولي الأمرِ منكم» فقلت : يارسول الله ! عرفنا اللهَ ورسولَهُ فمَن «أولوا الأمر» الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ قال : هم خلفائي ياجابر ، أئمّة المسلمين بعدي ، أوّلهم عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمد بن عليّ المعروف في التوراة بالباقر ـ وستدركه ياجابر، فإذا أدركته فاقرأه منّي السلام ـ ، ثم الصادق جعفر بن محمّد ، ثم موسىٰ بن جعفر ، ثمّ عليّ بن موسىٰ ، ثمّ محمّد بن عليّ، ثم عليّ بن محمد ، ثم الحسن بن عليّ ، ثمّ سَميّي وكَنيّي حجّةُ الله علىٰ أرضه وبقيّتُهُ في عباده ابنُ الحسن بن عليّ، ذاك الذي يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ذِكرُه ـ علىٰ يديه مشارقَ الأرض ومغاربَها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه [له] غيبة لايثبُت فيها علىٰ القول بإمامته إلاّ من امتحنَ الله قلبَهُ للايمان . قال : فقال جابر : يارسول الله ! فهل ينتفع الشيعة به في غيبته ؟ فقال : أي والذي بعثني بالنبوّة إنّهم لينتفعون به ويستضيئون بنور ولايته كانتفاع الناس بالشمس وإن جلّله السحاب ... الحديث .

٨) النساء [٤] الآية ٥٩ .

للأمر اغتصاباً مع كون أكثرهم من الفسّاق والفجّار الظالمين علىٰ الناس ، وقال تعالىٰ : **﴿لاينال عهدي الظالمين﴾**[١] ، وعهد الله ليس إلاّ الامامة والولاية والتصرّف[٢] .

اشارة ودقّة :

اذا عرفت انّ مسألة الولاية والامامة لا تقبل الختام كما تقبلها مسألة الرسالة ولايمكن انقطاع ذلك وخلو الأرض عن الحجّة مادام الانسان يعيش علىٰ وجه البسيطة بصورة اجتماعية ، فلابد لنا ـ قبل الورود الىٰ حالة النيابة والوكالة ومسألة الغيبة ـ ان نُشير الىٰ مرحلة في الامامة أدقّ من الزعامة الاجتماعية وادارة المجتمع في مختلف شؤون حياة الانسان علىٰ ماهو الأصلح له في مجموع نظام الخلقة ، وهي انّ العالم كما ترىٰ بأجمعه ذا حركة وتحوّل في جميع جوانبه ونواحيه من الجواهر والاعراض في ظواهرها وبواطنها بقواها وفعالياتها ؛ والأنواع الموجودات المتحققات غير مستثناة ومحكومة بذلك القانون الحاكم على أيّ شيء متعلق بإرادة الله تعالىٰ الشاملة المحيطة ، وكذلك نوع الأنواع الانسان وهو أفضل موجود في العالم ، وتحقق كل نوع بالافراد الخارجية الطبيعية موجود بوجود أفراده ، واذا أمكن وجود أعلىٰ الأفراد وأكمله تجليّاً لوجود النوع لايوجد الأخس علىٰ ما أشرنا اليه سابقاً من قانون امكان الاشرف وامتناع تحصّل غيره مع امكانه لامتناع البخل في المبدئ الفياض بالذات .

فاذاكان الانسان بنوعه موجوداً فلابد وان يكون أشرف الأفراد وأعلىٰ وأفضل انسان يمكن ان يوجد ، موجوداً ومتحققاً ، والأشرف الأفضل الأعلىٰ علىٰ الاطلاق

---

١) البقرة [٢] الآية ١٢٤ .

٢) ومن العجب أنّ رئيس الساواك وكذا رئيس السجن في كرمانشاه كانا ـ حين مكالمتهما ايّاي بصورة رسمية وغير رسمية ـ يعتقدان بأنّ الحاكم الجائر وحاكم الزمان مع جوره الكثير من مصاديق أولي الأمر ، وقد صرّح الأوّل بأنه شيعي: (حبّ الشيء يعمي ويصم ويوجب الزلل والانحراف عن الحق) أعاذنا الله منه.

لايمكن أن يكون إلاّ واحداً وهو النبي ، وذلك الواحد الموجود الذي لا أشرف منه في نوعه وهو أظهر مجالي فصول النوع لاسيما فصله الأخير الذي به قوام نوعيّته هو الذي يتحرّك اليه سائر الأفراد ويتكامل نحوه حتىٰ يتّصل به ويصير من أعلىٰ مصاديق النوع أو أقرب اليه فذلك الفرد الذي تجلّىٰ في النوع بأعلىٰ حدّ الامكان هو المقدّم والامام وسائر الأفراد هم المتأخرون المامومون المقتدون به في كمالاته وواجديّاته ، وهذا نظام في جميع أنحاء الخلقة سارٍ عام .

نوع الأنواع :

وحيث أنّ الانسان أشرف الأنواع وأجمعها بالنسبة الىٰ الكمالات التي يمكن أن تحصل في ذلك العالم ، ولذلك سمّي بنوع الأنواع فهو أجلىٰ مجالي أنوار الخلقة وأظهر مظاهر الربوبيّة بل الالوهية ؛ ومن ذلك كان خليفة الله في أرضه ، وبه تنجلي تمام كمالاته وكمال أوصافه وحسن خلقته ، والنوع لابد وأن يكون موجوداً بأشرف أفراد الانسان الممكن الوجود وذلك الفرد الأشرف الموجود هو أجلىٰ مظاهر خلافة الله تعالىٰ وهو المقدم الواقع في الامام وسائر أفراد النوع متأخر عنه يتّبعونه حتىٰ يتكاملوا ويتّصلوا به .

الأرض لا تخلو من امام :

وعليه فما دام نوع الانسان موجوداً في العالم وهو خليفته الذي جعله في الأرض ، فلابد وأن يكون ذلك الفرد الذي لايمكن أن يوجد أفضل منه في نوعه موجوداً ، وذلك الفرد هو الامام وهو لايكون ولا يمكن أن يكون إلاّ واحداً في كل زمان وهو أفضل الناس وأشرفهم علىٰ الاطلاق .

وهذا الفرد الأفضل والأشرف الواجد لتمام كمالات النوع علىٰ الاطلاق هو

الامام علىٰ الاطلاق . وكان المصداقَ الحقيقي له في الخارج هو الرسولُ ﷺ أو نائبه وخليفتُه من بعده ممن لا طريق الىٰ عرفانه بهذا الوجه إلاّ عن طريق أكمل الأفراد الرسول ﷺ أو الامام .

والامامة بهذا المعنىٰ الأشمل هو الذي يستغرف من ناحية الولاية التكوينية والوساطة في فيض الوجود والخلافة في جميع صفات الله تعالىٰ التي لايناسب المقام بسط الكلام فيها ، ومن ناحية الزعامة والرئاسة الاعتباريّة التي تنالها يد الجعل وتتحقّق بالنصب علىٰ مراتبه توسعةً وتقييداً وتنتفي بالخلع . ومن المعلوم أنّ الأحقّ بتلك الزعامة هو الواجد للولاية العامة ، وله التصرف في مطلق الشؤون ، فتأمّل في ذلك جيداً ولا تلقِها إلاّ عند من هو جدير بها .

الغيبة والنيابة :

نرجع الىٰ البحث ومعرفة المصاديق ، وقد انتهىٰ نصب رسول الله ﷺ وتعيينه وكذا نصب كل امام من بعده الىٰ الامام الثاني عشر (عجّل الله تعالىٰ فرجه) وذُكر في حقه أنّه الذي له الغيبة الالٰهية حسب مصلحة خاصة . وعند ظهوره يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً . ومن العجب انّ مسألة الغيبة وخصوصيّات الامام الثاني عشر عليه السلام مذكورة علىٰ لسان رسول الله ﷺ وكل من الأئمة عليهم السلام عندما انتهىٰ كلامهم في الامامة الىٰ ذلك المقام والأمر علىٰ حدّ في كلماتهم من القطعيّة كالآيات الشريفة الراجعة الىٰ عمر نوح[١] ، ونوم أصحاب الكهف[٢] ، وما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ فانظر الىٰ طعامك وشرابك لم يتسنّه ﴾[٣] وأمثاله من الآيات الإلٰهية . واذا كانت المسألة من الآيات بقدرته الخالقة الشاملة

---

١) «ولقد أرسلنا نوحاً الىٰ قومه فلبث فيهم الف سنة إلاّ خمسين عاماً» (العنكبوت [٢٩] الآية ١٤) .
٢) انظر سورة الكهف من الآية ١٣ الىٰ الآية ٢٢ .
٣) البقرة [٢] الآية ٢٥٩ .

الحاكمة علىٰ الطبيعة لا من مجاريها الخاصة فلا كلام فيها بعد تصريح الرسول والأئمة (عليه وعليهم الصلاة والسلام) كما ترىٰ في كتب الفريقين والمؤلّفات الخاصة بالمسألة فهي كثيرة تجد البحث مضبوطاً في: «منتخب الأثر» للعالم الفاضل المعاصر صاحب التأليفات القيّمة الشيخ الأجل لطف‌الله الصافي (أيّده الله تعالىٰ وجزاه عن الاسلام خير الجزاء).

ماهو سرّ الاستتار؟

ولعلّ الانسان اذا ابتعد ـ بنوعه ـ عن الحق والفضيلة واستُدرج الىٰ الباطل والبهيميّة فشاع بينهم التكالب والتغالب حتىٰ انتهىٰ ذلك الىٰ قتل الأفاضل وإعدام الأخيار حتىٰ قتل الامام الهادي عليه السلام، وانحصر المثل الأعلىٰ في النوع الذي عرفته أنّه أجلىٰ المصاديق وأظهر المظاهر في فرد خاص معين، وتحوّل الأمر بسوء اختيار بني الانسان الىٰ وضع ينتهي بقتله قتل تمام الفضيلة والإنسانية الموجب بفقد النوع بمعناه الحقيقي وهو خليفة الله علىٰ أرضه، فلابد بحكم النظام الأكمل الأشرف بإرادة الله تعالىٰ أن يقع هذا الفرد الحجّة والامام موقعاً لن تناله أيدي الظلمة المنحطين ولا يراه الناس، حفظاً للحق وصوناً للنظام التكويني والتشريعي الأشرف مهما طالت مدة استتاره حتىٰ ينقضي ذلك الحادث الفاضل في طول عيش النوع الانساني، وان مئات السنين بل ألوف السنين بالنسبة الىٰ حياة نوع الانسان وطول تكامله وابتلائه بالحوادث الخافضة والرافعة ليست بكثير.

فغيبة الامام عليه السلام في فترة من الزمان لطف من الله تعالىٰ علىٰ نوع الانسان لصونه عن السقوط والانعدام. وليس معنىٰ الغيبة انقطاعه عن العالم وعن النوع وعن الامة بل هو علىٰ اتصال بهم ومع ذلك ومع تأثيره فيماكان عليه الأثر فيه، لا تراه في الانظار لحجاب جعله الله تعالىٰ بينه وبين الناس لمصلحة لعلّها ما عرفت كما ذكر في روايات الباب انّ مثله عليه السلام في زمن الغيبة كالشمس سترتها السحاب والغيوم فانّها

لأترىٰ مع تأثيرها في العالم على وجهها السابق [١] . وعند اقتضاء الشروط ورفع الموانع تنجلي ، ولعلّ الانسان اذ تعجب عن التكالب وكسل عن التغالب وعرف انه لم يخلق للبهيمية واستخدام قواه واستعداداته العجيبة في طريق التخريب والهلاك بإيجاد الحروب العالمية والسباق التسليحي المبيد لنوع الانسان عن سطح الأرض حيث انه حيران لايجد طريق الخلاص : ينتظر الفرج من الله تعالىٰ ، فاذا تحقّقت الشروط والمقتضيات يظهر الامام الغائب عليه السلام بإرادة الله تعالىٰ فينفي الفتنة عن الأرض ويملأها قسطاً وعدلاً بأمر الله تعالىٰ وبأيدي المؤمنين[٢] وعند ذلك ينجز الله تعالىٰ وعده ﴿ **ونُريد أن نمنّ علىٰ الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾ [٣] بظهوره عليه السلام . ، اللّهم اجعلنا من أعوانه وأنصاره وممّن يتمتّع بعدله وقسطه في الأرض انشاء الله .

معنىٰ الانتظار علىٰ الاجمال :

واذ انتهىٰ بنا الكلام الىٰ هنا ، لابأس بأن نشير الىٰ معنىٰ الانتظار في الجملة قبل بيان مسألة النيابة ونحو دوام الامامة وبقاء الأمر زمن الغيبة .

انّ الانسان كما تعلم ـ وكما أشرنا اليه في أوائل البحث ، في الجملة ـ متأثّر بما يحيطه وان كان مؤثّراً فيه أيضاً . فما يراه ويسمعه من خير أو شرّ يتفاعل معه ، وكذا مسألة ماورثه الانسان من آبائه وأجداده ومسألة مساعدة القضاء والأنظمة الكليّة في العالم وقدر الأنظمة الجارية الجزئيّة في مرحلة التصادم في العالم وغير ذلك ممّا لايقتضي المقام الكلام عنه ، فكل ذلك مؤثر في تلك الصياغة والانصباغ سرعة

---

١) قال المهدي (عج) : وامّا وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس اذا غيّبها عن الابصار السحاب واني لأمان لأهل الأرض كما انّ النجوم أمان لأهل السماء . (البحار : ج ٥٢ ص ٩٢)

٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لاتقوم الساعة حتىٰ تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً ثم يخرج رجل من عترتي فيملؤها قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وعدواناً . (كنز العمال : خ ٣٨٦٩١)

٣) القصص [٢٨] الآية ٥ .

وبطأً. فان الانسان يتكامل نحو الخير والحق بأسرع من تكامله نحو الشرّ والباطل وحتىٰ في الباطل يتحرّك بعنوان الحقّ ويتخيّل الخير.

فالانسان اذا وقع في مفترق طريق الشرّ والظلم والباطل، فان كان بحسب نفسه وطبعه غير آبه بما يصدر منه خيراً كان أو شرّاً، ظلماً كان أو عدلاً من غير اهتمام ومبالاة، فسوف يتأثر بذلك وينحل ما بقي في وجوده من كراهة الشرّ وردّ الظلم تدريجياً وينتهي الىٰ حال لايجد في نفسه داعياً لدفع الظلم أو ردّه، بل قد يساعد الباطل ولو من حيث لايعلم.

واما اذا عمل بما فطره الله تعالىٰ عليه من درك حسن العدل وقبح الظلم ومن الالتذاذ بالخير والعمل به والاشمئزاز من الشر والابتلاء به، فيتأثر من ذلك العمل ويساق الىٰ حدّ تنصبغ به نفسه ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾[1] فيعمل للخير وللحق ولله تعالىٰ، ويردّ الشرّ والباطل وينفي الشرك الظلم لله تعالىٰ، ويخرج عن حالة السوء ويلحق بعوامل الخير وجنود الحق في مجموع النظام، وعندئذٍ اذا لم يقدر علىٰ اثبات الحق ونفي الباطل ولم يتمكّن من اقامة العدل والمعروف ومحو الظلم والمنكر، ولم يجد في نفسه شيئاً يؤيّده ويثّبته علىٰ ذلك ينحل طبيعياً في المحيط ويتأثر به الىٰ حدّ عرفت انه قد يصير من عوامل الظلم والباطل والمنكر وهو لايعلم، واما اذا وجد في نفسه مايطمئن به من ﴿ **العاقبة للمتّقين** ﴾[2]، ﴿ **فامّا الزبد فيذهب جفاءً** ﴾[3]، واما العدل والحق والخير فيمكث في الأرض ويحكم عليها بإرادة الله تعالىٰ وسننه التي لاتبديل لها، فيسلم ويبقىٰ علىٰ سبيل الحق كما أشار اليه الامام علي عليه السلام في مراتب النهي عن المنكر والأمر بالمعروف من أنّ تلك المرتبة

---

١) البقرة [٢] الآية ١٣٨.
٢) الأعراف [٧] الآية ١٢٨.
٣) الرعد [١٣] الآية ١٧.

القلبيّة لاتنتج إلاّ سلامته ، وان مرتبة اللّسان خيراً منها ، ولكن الآمر والناهي بحق من كان يعمل بالسيف[١] .

اذا عرفت ذلك تتمكن من تصوّر تأثير الانتظار في حفظ الحق والعدل بمعنىٰ أنّ المنتظر لقيام الحق وظهور العدل بيد الامام الغائب عليه السلام خليفة الله تعالىٰ وبقية الله، لاييأس من روح الله أبداً ولايستسلم للظلم ولا للباطل ولا يقبل مايقتضيه محيطه المنحرف بل يعمل للحق والعدل والخير بكل قدرته وامكانه حسب وظائفه الشرعيّة والعقليّة ، واذا انتهت الشروط الىٰ حدّ لم يتمكن من شيء أصلاً فقلبه مطمئن بالايمان وقاطع بظهور العدل وغَلَبة الحق وزهوق الباطل وهو منتظر .

ومختصر الكلام : انّ الانتظار من أقوىٰ عوامل ابقاء العدل ومعاونة الحق واعدام الظلم وترك الباطل في أي جوّ كان وفي مختلف المجالات ، والمنتظِر هو العامل لما ينتظره المساعد لرفع الموانع وتهيئة الشروط حتىٰ يتحقّق المطلوب ويظهر المنتظر عليه السلام دون الكالّ التارك الآيس من أي عمل بل المستسلم الراضي بالظلم والفساد تخيّلاً أنّ ذلك من مقدّمات الظهور ، ولابد أن يقال له : عليك بتوسعة الفساد واشاعة الفحشاء بل ايقاع نفسك وأهلك في الظلم والباطل تسريعاً لتحقق الظهور ، وهذا مما يردّه العقل والشرع الصريح ، والمُعتَقِد بهذا في سفاهة وضلالة ، فأين وظائف كل فرد مسلم بل كل انسان عاقل الراجعة الىٰ حماية الحق والعدل وإبطال الظلم وردّ الباطل مع مايقع في مجموع النظام علىٰ اصول القضاء الحاكمة الكليّة التي اشارت اليه بعض روايات الباب ، فالانتظار اذن من عوامل ظهور العدل

---

١) أيّها المؤمنون ، انه من رأىٰ عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى اليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلىٰ فذلك الذي أصاب سبيل الهدىٰ وقام علىٰ الطريق ونوّر في قلبه اليقين . (نهج البلاغة: كلام ٣٦٥ وفي معناه مفصّلاً (٣٦٦) و (٣٦٧) فراجع .

وبقاء الحق ، لا من أسباب توسعة الظلم وحكومة الباطل وتبديل الانسان الىٰ موجود مهمل يعمل به المحيط حيث شاءه العمّال الظلمة وأيادي الباطل .

النيابة مرحلة من الامامة :

ثم انك بعدما عرفت من ضرورة مسألة الامامة بالمعنىٰ الأعم الشامل للولاية والزعامة والتصرّف في شؤون الامة والمجتمع في جهة حفظ حقوقهم وتأمين مصالحهم ، وعرفت ان ذلك لايقبل الختام ويمتنع أن ينقطع حتىٰ بعد ختم الرسالة، وان الامامة استمرارية الرسالة في مرحلة العمل والاستنتاج بحيث لاتفيد الرسالةُ الفائدةَ المطلوبة المرجوّة منها بلا امامة ، حتىٰ لو انتهىٰ الأمر بحسب الواقع وفي نهاية المطاف الى ان يستتر الامام ويغيب عن الأنظار .

والسؤال هنا : هل تنقطع الزعامة والولاية علىٰ الأُمة مع بقاء الامامة والولاية العامة في مجموع النظام ؟ وهل تترك الامة على حالها الىٰ زمن الحضور فتفعل ما تشاء ، وليس لأحد في حال الغيبة حق الولاية والتدخل في امور المجتمع الاسلامي وبلاد المسلمين ، بل علىٰ كل من يعرف الأحكام الشرعية الألهية ان يرشد الناس ويهديهم الطريق من غير دخالة في مرحلة الاجراء والعمل ؟

هناك قولان نستعرضهما حتىٰ نعرف الحق من خلالهما .

الأمّة بلا امام :

(**القول الأوّل**): انّ الأمر كذلك، وانّ الأصل الأوّلي علىٰ ماثبت بالبرهان: أن لا ولاية لأحد إلاّ ماخرج بالدليل ؛ ولاية الله تعالىٰ والرسول المنتصب من قِبلهِ تعالىٰ والامام المنصوب من قبلهما ، وبعد الغيبة لم تثبت ولاية أحد علىٰ الامة ، والعلماء

العارفون بأحكام الاسلام ليس عليهم إلاّ اظهار العلم وبيان الحق من غير دخالة في اجراء تلك الأحكام ، والناس بالخيار إن شاءوا عملوا فيثيبهم الله تعالىٰ ، وان شاءوا تركوا فيعاقبهم الله تعالىٰ في الآخرة ، والذي عليه الأكثر : أنّ هناك اموراً تعلم أن الشارع لايرضى بتركها ، ويطلب تحقّقها من غير نظر الىٰ شخص العامل المباشر كتصدي الأوقاف وتولّي أمور الغُيَّب والقُصّر ودفن الموتىٰ وأمثالها ممّا تسمّىٰ بالأمور الحسبيّة أي الكفائية ، فالعلماء العرفاء بالأحكام أحقّ وأولىٰ بالتصرف وان لم يتمكّنوا فعدول المؤمنين ، وإلاّ فالفسّاق والظلمة منهم بل مع عدم التمكّن لا بأس بتصدّي الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم ، فان المطلوب عدم ترك العمل ولا دخل للعامل ، وحتى ان العالم اذا تصدّىٰ لشيء من الأمور الماليّة من الخمس والزكاة والصدقات ، لابدّ وان يستجيز صاحب المال للتصرّف ، فان له ان يصرفه بنفسه في مصارفه مثل العالم من غير فرق بينهما ، والأكثر ان العالم أعرف بالمصارف وعليه ان يعلّم صاحب المال ويرشده اليها ، فان أعطىٰ صاحب المال الخمس ـ مثلاً ـ الى العالم لابدّ أن يجيزه فان الاعطاء لعلّه لتوهّمه انّه لايجوز له التصرّف بنفسه .

وانت تعلم ان ظاهر هذا الكلام نظري واضح مع اعتراف القائل بلزوم التصدي وضرورة المتصدي .

وكيف لايرضي الشارع بترك امور مع عدم النظر الى المجري ولو بنحو تعدّد المطلوب ؟ لاسيما بعد ملاحظة تناسب الحكم والموضوع ، وان الذي لايرضى الشارع بتركه من الاحكام والحسبيات مما تتوقّف على العلم والعرفان ؟ مع ان ذلك ينتهي الى تعطيل حدود الله تعالىٰ وشرائعه بل أحكامه التكليفيّة العباديّة بتسلّط الفسقة والظلمة بل الفجرة الكفرة وانمحاء الدين ؟ مع ضرورة العقل قائمة علىٰ لزوم الزعيم الحاكم المتصدّي لحفظ مصالح الامة وجلبها ودفع المفاسد ورفعها كما هو كذلك في كل مجتمع ، ومع الدليل القاطع من العقل والنقل على النيابة والولاية

للنائب في كل ماكان للمنوب عنه التصرّف فيه من الحوادث والمسائل الراجعة الىٰ الامّة كما سنشير اليه اجمالاً انشاء الله تعالىٰ .

امام الأُمّة :

(القول الثاني) : انه كما عرفت أن مجتمع الانسان ونوعه بلا رسالة كالفرد بلا عقل ، ناقص في الخلقة . فكما ان الرسالة بلا امامة نقص في النظام ، ومجرد بيان الخير من الشر ونفس بيان المصالح والمفاسد لايغني من الحق شيئاً ، وكما ان النوع يمتنع ان يكون موجوداً بلا فرد هو وصفاته وكمالاته أفضل وأشرف ما يمكن ان يكون ، ولذلك يمتنع خلوّ الأرض عن الحجّة والخليفة ، فكذلك يمتنع بقاء الشرع والدين ومطلوبيّة الأحكام والحدود في زمن الغيبة بلا ولاية وزعامة ، ويمتنع وجود خير الامة بلا مقام الأمر والنهي ، ويمتنع الأمر والنهي بلا مقام المسؤول للأجر أو بدون حق التصرّف في الشؤون التنفيذية ، فان ترك زمام الامّة في زمن الغيبة، والاقتصار علىٰ الارشاد وبيان الأمور يساوق انقراض المجتمع الاسلامي وانعدام خير الامّة ، والأكثر بقاء أفراد قلائل خلال المجتمعات المتشتّتة الذين يعيشون علىٰ آداب ورسوم متفاوتة وقوانين مختلفة شرقية أو غربية ، ظاهرها الٰهية ولكن واقعها مختلف من أنواع الأنظمة الشيوعية وغيرها . واولئك القلائل تبقىٰ بعض أفعالهم العباديّة فقط علىٰ سيرة الامة الاسلامية في الجملة وداخل المعابد والمساجد فقط من دون تأثير علىٰ مكانة المجتمع والامة ، فلاتجد في الواقع امّة اسلامية كما أرادها الله تعالىٰ بل أفراداً مسلمين متشتتين في الامم الباطلة .

وليس هذا هو المطلوب من قوله تعالىٰ : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كلّه ولو كره المشركون** ﴾[1] ، وليس هذا هو المراد

---

١) التوبة [٩] الآية ٣٣.

من قوله تعالىٰ : ﴿ وقاتلوهم حتىٰ لاتكون فتنة ويكون الدين لله ﴾[١] ، وليس هذا هو المقصود من الآيات الكثيرة الواردة في غرض البعثة وهدف الأنبياء ﷺ لاسيما الاسلام وبعثة النبي الخاتم ﷺ من اخراج الناس من الظلمات وادخالهم النور وهدايتهم الىٰ سبيل الحق ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الىٰ النور﴾[٢] .

وعندنا المسألة علىٰ حدّ من الوضوح بحيث ان الكلام فيها كالبحث في الضروريات ، فان الاسلام أعزّ الأديان وأتمّها وأحقّها ، ورسول الله ﷺ أُرسِلَ الىٰ كافة الناس ، وشريعته غير محدودة بزمان أو مكان ، ولا تنحصر بمسائل علمية أو اعتقادية أو عبادية فقط ، بل موضوعها الانسان على الاطلاق وغرضها هدايته وايصاله الى ماهو المخلوق له في جميع شؤون حياته المادية والمعنوية . وترىٰ في أحكامه القطعية والمسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والأدبيّة من المعاملات والحدود والقصاص والديات والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخمس والزكاة والانفال والصدقات والكفّارات والأوقاف وغيرها مما تنادي بالافتقار الى الولي المتصدّي الزعيم العامل في كل عصر وزمان وكل قطر ومكان ، فلا وقع لتصوّر انقطاع الزعامة والتصدّي للأمور في زمن الاستتار والغيبة ، فكيف التصديق بهذا التصوّر مع حكم ضرورة العقل وعمل العقلاء القاضيين في كل زمان ومكان بلزوم وجود من يتصدّىٰ للأمور علىٰ ضوابط خاصة .

وان لم تقنع بذلك كلّه وتعتقد في ذلك التعبّد الجاف الساذج علىٰ حدّ المهيّات المخترعة الشرعية في العبادات وترىٰ المسألة متوقّفة علىٰ الدراسة النظرية، فعليك بأوامر الأئمة ﷺ وأعمالهم والتوقيعات الصادرة عن الناحية

---

١) البقرة [٢] الآية ١٩٣ .
٢) البقرة [٢] الآية ٢٥٧ .

المقدّسة الناصبة للعلماء العارفين بالحلال والحرام، الناظرين في الاحكام، العدول، التاركين للهوىٰ ومنحهم الولايةَ والمرجعية للقضاء والحكم وان أحكامهم هي أحكام اللّه، ولكل حادث وواقعة كان على الامة المراجعة فيها الى نفس الامام عليه السلام في زمن الظهور ممّا يرتبط بمقام الامة والامامة؛ وعدم العلم بحكم من الأحكام ليس حادثة وبيانه للجاهل ليس مقام الامامة والمرجعية كما عرفت في معنىٰ الرسالة والامامة كما فصّل الكلام حول دلالة أوامرهم وكلماتهم وأعمالهم من جعل الولاة وعزلهم في المفصّلات.

وعندنا انك بعد الالتفات والدقة في المسألة وفي ظرفها وشروطها تجدها ضرورية، وان امتناع بقاء الامة بلا امام وزعيم ولو لمرحلة قليلة في نهاية البداهة وان النيابة هي الطريق الوحيد الى حفظ الامّة، وانه بعد انتهاء الدورة الخاصة بالنوّاب الأربعة (رضوان الله تعالىٰ عليهم)، انتهىٰ الأمر الى نيابة عامة وان المرجع للأمور والمسائل الراجعة الى الامة والامامة لكل من كان فيه ماذكره الأئمة عليهم السلام من الشروط التي نظن ان اكثرها ارشاديّة عامة بعد معرفة أصل الجعل، فالفقيه الجامع للشروط العالِم العارف بالزمان التارك للهوىٰ[1] هو الولي الحاكم المتصدي لشؤون المجتمع المسؤول عن حفظ الامة الاسلامية وحقوقها وبقائها ورقيّها وجلب منافعها والدفاع عنها وان لم يفعل أُلجم بلجامٍ من النار وابتلي بغضب الجبّار أعاذنا الله وإيّاكم منه.

وكيف في مقام العمل؟

ولعلّك تتوهّم أن هذا كلام نظري يناسب الأبحاث الدراسية والفكرية ويرجع الىٰ مراحل التفكير ولا يرتبط بالعمل بل ينتهي الىٰ عدم الولاية للتعدّد والكثرة في أكثر الأزمنة، وهذا أكثر الىٰ ما نراه في مرحلة العمل، فتبقىٰ الامة بلا زعيم وولي

١) قال الصادق عليه السلام: فامّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه. (الاحتجاج: ج٢ ص٢٦٣)

يتصدّىٰ لشؤونها ، لأنه كان يعمل في شيء علىٰ نظره المنتهي اليه وهو يعتقد ان ذلك حق مصيباً كان أو مخطئاً فينتهي الىٰ الاختلاف وعدم امكان التسلّط والادارة والاجراء والتنفيذ ، فتذهب ريحهم وتداس كرامتهم وتبقىٰ الامة محتارة متشبثة بكل وهم ، وهل هذا إلاّ الدمار والزوال والهلاك ، فأين دين الله الباقي الحاكم الأعلىٰ الذي لايُعلىٰ عليه ؟

ولعلّك تضيف الىٰ ذلك بعض الفترات التاريخية والنماذج الخارجية التي تؤيّد هذه الفكرة مما لاينكره أحد في سالف الزمان أو خالفه .

المسألة أدقّ :

ولكنك اذا امعنت النظر تجد النقص في مرحلة العمل ناشئاً من عوامل اخرىٰ اجنبيّة استخدمتها أيادي أعداء الاسلام ولاسيما أعداء التشيّع في مرحلتين ، فان أعداء الله وأعداء المسلمين من اليهود والنصارىٰ منفردين أو متّحدين في كل عصر وزمان لم يقصروا في عدواتهم ومكرهم وحيلهم من طرق عديدة ليس هنا محل البحث عنه ، فقد سلبوا القدرة عن موضعها وحوّلوا الأمر عن مداره حتىٰ عن طريق التحريف في مفاهيم الاسلام ومُثُله العليا في مقام الامة والمجتمع .

وإلاّ فاذا كان القرآن الكريم هو المرجع الأول ﴿ **كتابٌ احكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير** ﴾[١] وهو اُسّ الأسس والفرقان بين الحق والباطل بحسب الحكم والقانون ثم من بعده عترة الرسول ﷺ عدل القرآن وهم المرجع الثاني في الخصوصيات المفتقرة الىٰ التفسير والتشريع ، وقد أمر الرسول ﷺ بلزوم اطاعتهما والتبعية لهما في حديث الثقلين[٢] وأمر الله تعالىٰ بإطاعة الرسول ﷺ ،

---

١) هود [١١] الآية ١ .

٢) قال رسول الله ﷺ : اني تاركٌ فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ،

والعترة بدورها جعلت الفقيه العارف العالِم العادل نائباً في زمن الغيبة ، فيصير الأعلم الأعرف الأعدل الذي لايكون إلاّ واحداً هو الولي الأول والزعيم الأقدم والآخرون ـ لفقاهتهم وعدلهم وعرفانهم ـ يعملون علىٰ الأصول الأولية والقوانين الكليّة ، وعند اختلاف النظر في غير الفتاوى من الأمور الحكومية يتصدّىٰ الأول ويحكم وليس لغيره النقض والردّ ، فان الإفتاء غير الحكم .

الافتاء مقام والزعامة مقام آخر :

وللتوضيح في المقام لابدّ أن نوجّه نظرنا الىٰ مسألة الرسالة والامامة ، وكما عرفت فان الرسول ليس عليه إلاّ البلاغ وبيان أحكام الله تعالىٰ من ان هذا حلال وذاك حرام ، وعلىٰ الامام التصدّي والتصرّف في الأمور مطلقاً ومنها اجراء الحدود والعقوبات علىٰ تارك الأحكام الالٰهية العاصي لها ، والرسول الخاتم ﷺ كما عرفت كان رسولاً واماماً وبعد الأئمة عليهم السلام وهم ورثته في الامامة دون الرسالة المختومة ، فكان عليهم بيان ما جاء به الرسول وكذلك عليهم التصدي للأمور في التطبيق العملي لتلك الشريعة ، وبما ان العلماء نوّاب الأئمة عليهم السلام وورثة الأنبياء في ذلك فهم يبلّغون أحكام الله تعالىٰ وشرائع الرسول الىٰ الناس وفي ذلك المقام لابد لهم من العلم والمعرفة التامة بالأحكام من الأصول الأوليّة للكتاب والسنّة والعقل والاجماع علىٰ مافصّل في محله ، وعندئذٍ بعد بذلهم تمام الجهد قد تختلف انظارهم في بعض الفروع العملية ، وكلّ يعتقد ويؤمن بوجه ما ، بمعنىٰ أن ذلك آخر ما انتهىٰ اليه فهمه واستنباطه بعد الجهد الكامل ، فعليه وعلىٰ مقلّديه الاتباع صادف الواقع أوْ لا ، لانحصار الطريق الىٰ معرفة حكم الله بهذا وللمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد وليس في ذلك مشكلة للامة الاسلامية أصلاً قلّدوا واحداً أو أكثر .

← وانهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض . (وسائل الشيعة : ج١٨ ص١٩)

نعم لهؤلاء النوّاب مقام آخر كما كان للمنوب عنه أي الامامة والزعامة والمرجعية لأمور الأمّة والحوادث الواقعة وفي ذلك لابدّ من تمركز القوىٰ وتعاون الأفراد علىٰ صيانة الاسلام وحراسة بيضته ، وهنا تتضرر الامة بالتشتّت والاختلاف، بل عليها تقديم الأعلم الأعمل الأعرف بشروط الزمان وحماية الآخرين الذين عملوا بما كان عليهم في حدّ القدرة علىٰ اختلاف شروط المجالات والاجواء واتّفقوا متحدين علىٰ حفظ الأصول وصيانة مهام الأمور وأركان المجتمع الاسلامي كما تشهد الحوادث الجارية .

ونختّم الفصل بالاشارة الىٰ الحكومة والولاية الاسلامية بخطوطها الكلية .

تصوير للوالي والولاية في الاسلام:

يجب علىٰ وليّ الأمر حفظ مصالح الامة الاسلامية ودفع المضار والمفاسد عنها في دائرة حدود الله تعالىٰ وشرائعه حسب الطرق العقلائية والمجاري العادية، ومن المعلوم ان العمل بذلك الواجب العظيم الذي ينقسم في مقام الامتثال الىٰ واجبات عديدة ليس في عهدة شخص الولي النائب عن الامام عليه السلام وهو بنفسه ولوحده لا طاقة له بذلك ، فلابد من الاستعانة بالغير بأيّ وجه أمكن فيجب علىٰ غيره اعانته بامتثال أوامره والاتيان بما يطلب وان انتهىٰ ذلك الى اعطاء الاجرة واستخدام الأفراد وتنظيم الأمور من خلال المؤسسات والأفراد .

ومن ذلك يجب بناء المؤسسات وتعيين الموظّفين حسب الاستعداد والكفاية والايمان والعدالة ، فهناك ـ مثلاً ـ أمران لابد في كلّ منهما من مؤسسة وموظفين .

(الأمر الأول): الأمور المالية : تجتمع الأموال من طرق مختلفة في بيت المال

وفق قواعد شرعية وحدود الْهية ـ سواءً من حيث المصدر من الواجبات مثل الخمس والزكاة والكفّارات والخراجات أو النوافل من الصدقات والانفاقات والأوقاف ، أو الانفال من البحار والجبال والآجام والأودية أو غير ذلك من مصادر الأموال ، أو من ناحية المصرف في حفظ شؤون الأمة الاسلامية وبلادهم من الثقافات والصناعات والمعامل والمستشفيات والطرق والشوارع وصولاً الىٰ مؤسسات المياه والزراعة والكهرباء والصنائع وغيرها .

وعلىٰ الاجمال فان تأمين كل مايحتاج اليه المجتمع الاسلامي بما هو اسلامي في المادّيات مما عرفت ، والمعنويات من المساجد والمعابد والمدارس الخاصة بالعلوم الدينية وكذاكل مايتوقّف عليه اقامة ذلك من الكتاب والمكتبة وتأمين معاش الطلأب والطالبات والاشراف في مراحلها العديدة التحصيلية والتحقيقية والتبليغية وغيرها .. كل ذلك من تلك الأموال باعانة المنظمات والعاملين الموظفين علىٰ أساس حدود الله تعالىٰ وقوانينه الكليّة وشرائعه الظاهرة[١] .

وفي الجزئيات لابدّ من المشاورة مع أهل الاختصاص فقط من الفقهاء العدول العارفين بشروط الزمان ومصالح الامة ، ومع عدم التوافق قبول أقرب الطرق الىٰ الواقع حسب اطمئنان العقلاء وهو الأكثرية لا بمعنىٰ أكثر من النصف ولو بواحد بل بحدّ يجلب الثقة والاطمئنان الىٰ الحق ، الأقرب للواقع ، لاسيما مع التوجّه الىٰ أدلّتهم وحججهم في النظر بعد أخذ عن العدالة والمعرفة بجوانب الحادث المختلف فيه بنظر الاعتبار ، اضافة الىٰ مراعاة الأصل الأوّلي الشرعي . وعندئذٍ يظهر الافتقار الىٰ المشاورة في شطر من المسائل حول الحوادث وتصويب ما انتهت اليه الآراء علىٰ الاتّفاق أو علىٰ وجه الاطمئنان العقلائي بأنّ الأقرب الىٰ الحق الأصلح

---

١) ولايمكن أن تجد طريقة أقوم وأصلح وأدقّ وأمتن إلاّ في الاسلام كارشادات مولانا علي عليه السلام حكّامه وولاته مثل (مالك الأشتر ومحمد ابن الحنفيّة وغيرهما) فراجع نهج البلاغة تجد ماذكرناه .

للأمة ، ومركز تجمّعهم مجلس الشيوخ للشورىٰ .

الشورىٰ :

وفي هذه الصورة مصداق قوله تعالىٰ : ﴿ وأمرهم شورىٰ بينهم ﴾[1] ، وأنت تعرف الفرق الفاحش بين مجلس الشورىٰ وما هو المتعارف لدىٰ الأمم المعاصرة علىٰ اختلاف اشكال الحكومات من ناحية الأفراد ومن ناحية القوانين والحدود والزمان والمكان ، فان أفراد المجلس الاسلامي المشاورين هم المنصوبون من قِبل الله تعالىٰ ببيان الأئمة عليهم السلام وهم الفقهاء العدول العارفون بحدود الله تعالىٰ وأحكامه، والعارفون بشروط الزمان ، دون المنتخبين من قِبل الناس علىٰ سبيل الأهواء ومدىٰ النفوذ والسلطة غالباً كما تراه في مختلف أقطار العالم اليوم . هذا من جهة الأفراد ، وأما من ناحية المبحوث عنه فكما عرفت ان بعض المصاديق الخاصة في الحوادث الكلية المختلف فيه في انطباق (أيّ العناوين) من الحدود الشرعية والأحكام الألٰهية عليه ، وليس لأحدهم التبعية لرغبات المجتمع أو مقتضيات الزمان بمعناه المتداول بين الناس فيغيّروا أحكام الله تعالىٰ أو يتصرّفوا فيها . فانّ «حلال محمّد حلال الىٰ يوم القيامة ، وحرامه حرام الىٰ يوم القيامة»[2] بل عليهم تغيير المحيط والمسلمين علىٰ وفق ومقتضىٰ حدود الله تعالىٰ وأحكام الشرع دون العكس ، والقرآن الكريم وشريعة العترة الطاهرة عليهم السلام بين أيديهم أحكم القوانين وأمتن الأُسس ، ففي دائرة تلك الأُسس عليهم تشخيص الأصلح والأقرب الىٰ الصلاح في مثل تلك الموارد

---

١) الشورىٰ[٤٢] الآية ٣٨ . وفي مثل تلك الموارد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالشورىٰ في قوله تعالىٰ : «وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكّل علىٰ الله» (آل عمران [٣] الآية ١٥٩) وان لم يتّفق لك الآراء مع انه كان يعرف الأصلح أيضاً كما فصّلناه في محله .

٢) الكافي : ج١ ص٥٨ ح١٩ .

الخاصة والحادثة التي لم يكن حكمها مبيّناً حسب اختلاف الموضوع وانطباق العنوان .

المشاورون و حدودهم :

وأما من جهة الزمان والمكان فلا خصوصيّة فيهما بل عليهم الحضور في المؤتمر والمشاورة لحلّ المشكلات في أي زمان ومكان يقتضيه الحادث واذا كانت الحوادث الواقعة متتالية تحتاج الىٰ جلسات متناوبة فعليهم تعيينها حسب المصالح العامة وحفظ الاصول الكلية والقواعد العامة دون التشريفات أو أيّ أمر زائد آخر .

ثم بعد تشخيص الصلاح وتعيين الطريق الصحيح يعلن الىٰ الامة ويبلّغ لهم مثل تبليغ سائر الواجبات والمحرّمات وغيرها من الأحكام الشرعية ، وعلىٰ الأمة العمل به وجوباً واطاعة حكمهم فان الرادّ عليهم كالرادّ علىٰ الله ، والامة الاسلامية حسب كونها كذلك تعمل بها وتجري بينها الأحكام .

(الأمر الثاني) : **الأمور التنفيذية** : فانه قد يوجد في كل مجتمع الجاهل الفاسق أو الكافر الظالم ممن يقترفون الذنوب ويرتكبون المخالفات ويتجاوزون الحدود ، وهناك يظهر الافتقار الىٰ مقامٍ مسؤولٍ لاجراء الحدود وهو في الاسلام نفس ذلك المقام المسؤول لتشخيصها حال اختفاء الامام المعصوم (عج) أي الفقيه العادل العارف ، فهو بنفسه مسؤول عن اجراء الحدود مباشرة أو غير مباشرة ، فعليه القتل والقطع والجلد علىٰ القاتل والسارق والزاني ، إما بنفسه أو بأمره ، فليس لكل مسلم التصدّي لذلك ولو ثبت لديه الذنب فان الحدود محدودة بأيدي الذين لهم مجاري الأمور الفقهاء العدول العارفين بالزمان .

وعندئذ يظهر الافتقار الى مقام القضاء حتىٰ يثبت الذنب فيحكم عليه أو

يدرأ عنه العقوبة ، فان الحدود تدرأ بالشبهات . وكذلك لحل المشكلات وفصل الخصومات الواقعة بين أفراد الأمة في الأمور المختلفة ، والمسؤول لهذا المقام أيضاً هو الفقيه الذي عرفته ، وليس لغيره التصدّي لذلك ، ولو بالعمل حسب الفتاوى في الأمور القضائية .

الحاكم:

والحاصل ان الحاكم في الاسلام الحافظ لحدود الله تعالىٰ وأحكامه الشاملة لجميع شؤون الامة ومختلف حالاتها في المجالات المادية والمعنوية ، والمتصدّي لاجرائها ، المشرف عليها وفاقاً وخلافاً ، والمجري للحدود علىٰ المتخلف ، والقاضي بينهم في موارد الخلاف ، مقام واحد هو الرسول ﷺ في حياته ، والامام المنصوب من قِبله ، كلٌّ في زمانه ، والفقيه المنصوب من قبلهم في زمن الغيبة ، فهو المسؤول المباشر ، وعليه التصدّي لذلك وجوباً وتأمين كل مايحتاج اليه في اجراء واجبه وامتثال تكليفه ، وعليه العمل بحكم الله تعالىٰ في كل مرحلة .. من تأسيس المنظمات والأجهزة واستخدام العمال والموظفين وترتيب الديوان والكتّاب وغير ذلك علىٰ أصول حدود الله تعالىٰ **﴿ ومن يتعدّ حدود الله فاولئك هم الظالمون ﴾**[1] .

هذا اجمال البحث والاشارة الىٰ صورة الحكومة الاسلامية علىٰ الاختصار اما تفصيل كل مرحلة جذباً ودفعاً ثقافياً وعسكرياً للأمور الراجعة الىٰ روابط الأمة بعضهم مع بعض أو مع سائر الأمم الاخرىٰ المعبّر عنها بالداخلية والخارجية في زمن الصلح والهدنة أو الخلاف والحرب وغير ذلك ، فتجد مبسوط الكلام حولها في الكتب الفقهية المفصلة .

---

١) البقرة [٢] الآية ٢٢٩.

وجوب التفقّه:

ولنختم هذا الفصل بالاشارة الىٰ ماتقدر ان تستنتج من اجمال الكلام في الولاية والحكومة ، وهو وجوب التفقّه والتعلّم في الدين وأحكام الشرع علىٰ كل من أمكنة حتىٰ سدّ ما به الكفاية في اداء ذلك الواجب ، أي (اقامة الحدود وإزالة الفتنة واعلاء كلمة الله ومحو كلمة الكفر) ولا أقل في كلّ مجتمع اسلامي من البلاد والقرىٰ من وجود فقيه يُرجع اليه ، وفي المراكز العلمية من فقهاء عدول عارفين بشروط الزمان ، فهم حصون البلاد الحفّاظ لمصالح العباد المتعاونون المتعاضدون في حراسة ثغور الاسلام وحدود بلاد المسلمين والدفاع عنهم ، فانه ﴿ **لولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع ومساجد...** ﴾[1] ، ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾[2] والدفاع كالجهاد ممّا يتوقّف علىٰ نظام واصول ، ويحتاج الىٰ تصدّ واشراف من قبل الحاكم الفقيه العادل العارف بالزمان ، فكل من يتمكّن من التفقّه والتحصيل يجب ذلك عيناً حتى الكفاية ، قال تعالىٰ : ﴿ **فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم** ﴾[3] .

ومن ذلك يظهر شدّة الوجوب علىٰ المشتغلين في الحوزات العلمية علىٰ وجه لعلّه يحرم علىٰ كثير منهم التسامح والتعلّل توهّماً منهم بوجود من به الكفاية للارشاد والتبليغ ، ونعتذر من خروج الكلام عن مسيره ، والله هو المستعان واليه المشتكىٰ .

هذا تمام الكلام في الأصول الكلية من المعارف الاسلامية النظرية والفكرية اجمالاً ، وهناك مسائل اخرىٰ كثيرة في معارف الاسلام تقوى وجهتها العملية ، نشير

---

١) الحج [٢٢] الآية ٤٠ .
٢) البقرة [٢] الآية ٢٥١ .
٣) التوبة [٩] الآية ١٢٢ .

الىٰ بعض مهامها حسب ماوفّقنا الله فيها ، ونرجو منه تعالىٰ التوفيق انّه خير موفّق ومعين .

الاسلام عملي لا ذهني:

ثم بعد الفراغ عن أهم المسائل الاعتقادية من اصولها وتفصيلها ـ وتفصيل الفروع في المفصّلات ـ لابدّ وأن نلفت النظر الىٰ بعض مهام المسائل العملية كالعبادات والمعاملات بمعناها العام الشامل لجميع العقود والايقاعات ـ والسياسات الشاملة لجميع شؤون المجتمع والامة :

اما الأولىٰ : فهي الأعمال التي تتوقف صحتها علىٰ قصد القربة ولا تتحقق بدونها وهي المخترعات الشرعية في مصالحها وملاكاتها المسماة بالعبادات المبحوث عنها في الكتب الفقهية بتفصيل في تركّبها وشروطها وموانعها وخللها وزمانها ومكانها كالصوم والصلاة والحج وغيرها الضامنة لتنظيم مصالح الفرد والامة والمجتمع الاسلامي .

والثانية : وهي التي لاتتوقف علىٰ القربة وتصحّ بدونها وان كانت معها أكمل وأفضل من المعاملات المتداولة كالشراء والاجارة والمصالحة وغيرها ، والعقود والايقاعات من النكاح والطلاق وغيرها المبحوث عنها في الكتب الفقهية تفصيلاً .

ولكن أكثر الناس يتوهّمون بأن انحصار الفقه والأحكام العملية لابد وان يكون في هذين القسمين فقط ، والمسلّم عندهم في المسائل الفكرية مما عرفت وفي المسائل العملية هذان القسمان فقط : (العبادات والمعاملات) ولا نعلم منشأ هذا التوهّم الشايع لدىٰ العموم من الناس ـ المؤثر مع الأسف في بعض الخواص أيضاً ـ من تركهم المباحث الراجعة الىٰ القسم الثالث وهل هو أيادي الأعداء الخارجيين من

اليهود والنصارىٰ بملاكات استعمارية وتوسعة السلطات الجائرة نهباً للأموال والثروات العامة وصدّاً عن تكامل الامة الاسلامية في مختلف شؤونها الاقتصادية والثقافية والصناعية حتىٰ تعلو ولا يعلىٰ عليها ؟ أم هو الجهل والضعف والتساهل والتسامح الداخلي حكام المسلمين .

لقد تركت الأمة القسم الثالث من المسائل العملية الاسلامية حتىٰ انتهى امرها الى ما ترىٰ وابتليت بأنواع من البلاء بمعاونة عملاء الاعداء : (اليهود والنصارى) ومعهم الجهلاء في بلاد الاسلام بدون علمهم أو مع العلم احياناً أعاذنا الله منه .

وكيف كان ، فان الاسلام دين عالمي ، وهو دين عمل وليس مجرد أفكار في الذهن تخصّ المعابد والصوامع . الاسلام شريعة لعامة البشر في جميع شؤون حياته في كل زمان ومِكان ، وهو خاتم الأديان لا لبعضهم فحسب ، أو في زمان ومكان دون غيرهما ، ومثل ذلك لايمكن ان تنحصر أحكامه في القسمين : (العبادات والمعاملات) فقط بل فيه الاجتماعيات والسياسيات ، وانك اذا دققت النظر تجد معظم الكتب الفقهية التي موضوعها أعمال العباد والمكلّفين ، تبحث عن الأحكام والمسائل الحكومية السياسية الراجعة الى شؤون المجتمع أيضاً كأصل مسألة الولاية العامة والقضاء والحدود والديات والقصاص والجهاد والدفاع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من أبواب الخمس والزكاة والكفارات والصدقات والأوقاف والأنفال وكل مايرجع الى الأموال العامة حسب المصدر والمصرف ، والعامل الوسيط ، وكيفية العمل فان ذلك كلّه في الحقيقة يرجع الىٰ مسائل عملية لابدّ وان يكون معمولاً بها في المجتمع الاسلامي لا مكتوباً في الكتب أو محبوساً في المكتبات التشريفية والتزيينية ، والامة الاسلامية ما لم تعمل بوظائفها الاجتماعية وما لم تتشكل وتتّحد وتتعاون علىٰ تطبيق الأمور الاجرائية لايمكن ان تستعيد كرامتها وسيادتها وشرفها ومجدها التليد ، بل لايمكن ان تذوق طعم الحياة

الانسانية في ذلك الجو العالمي الخاص ، فكل مسلم لابد وان يحسّ في نفسه حبّاً للاسلام والمسلمين وبغضاً لأعداء الدين ويكون في حياته اليومية محباً ومعاوناً وأخاً لإخوانه المؤمنين ومبغضاً ومعادياً ومطارداً لأعداء الدين في دائرة حدود الله تعالىٰ ، وكذلك الامة الاسلامية لابدّ أن تولي من له الولاية الألهية وحقّ التصرف والدخالة في شؤونها علىٰ حدود الله تعالىٰ وتطرد الأعداء والمخالفين . فكيف يتولىٰ أعداء الدين وأعداء الله وأعداء المسلمين من اليهود والنصارىٰ على حدود الله تعالىٰ .

نطاق العمل :

والعمل يتوقّف علىٰ الآلة أكثر ، فلابد من تحصيله واعداده في مختلف الجهات من ناحية العالم المتخصص والعالم المتبحّر في تكميل الآلات بل ابداعها حسب الاقتضاءات وسائر النواحي الصناعية والمالية وغيرها لابدّ من تهيئتها كلّها واستخدامها والتمرين عليها وايجاد الجوامع والكليات لتعليم كل النواحي المختلفة الطبية والحياتية والصناعية وغيرها وكذا ايجاد المعامل الصانعة لأنواع المصالح والآلات اللازمة للحياة الاجتماعية حتىٰ ينتهي الىٰ تقوية الجيش والمعسكر الاسلامي وتسليحه بأنواع الأسلحة اللازمة المتناسبة علىٰ حدّ التمكّن من ضمان الأمن للامة من أي عدوّ في بلاد المسلمين أو غيرها ، قال تعالىٰ : ﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل** ﴾[1] ، وشمل ذلك كل قوّة وكل معسكر .

وملخّص الكلام : ان توفيق الامة الاسلامية ورقيّها وتعاليها وبقاء حياتها ترتبط بعملها وفعلها في مختلف الجوانب ، فاذا اكتفت بالعبادات وغفلت عن ما عدا ذلك يستدرجها العدو الى الهبوط والسقوط الىٰ موقع الذلّة والمهانة . فعليك أيها الأخ

---

١) الانفال [٨] الآية ٦٠ .

المسلم العمل ، فالعمل ، فالعمل بحدود الله تعالىٰ وأحكامه في أي زمان ومكان . عليك ان تعرف أحكام الله تعالىٰ علىٰ سعة نطاقها والعمل بها ولا تحبس نفسك في شيء يسير ولا تقنع بأمر قصير واعل همّتك وارفع نظرك واعمل لاعتلاء الاسلام وكن مسلماً عملياً في كل الجوانب وصولاً الىٰ التولّي والتبريّ بالعمل الفردي والجماعي والدفاع عن الاسلام وبلاد المسلمين وبالعمل علىٰ الطرق العقلائية المتناسبة في دائرة حدود الله تعالىٰ تحت زعامة الٰهية وولاية اسلامية ، وعليك بالطاعة والعمل بأوامر أُولي الأمر الذين عرفتهم من قبل المنصوبين من الله تعالىٰ ، وعليك باعانتهم حتىٰ تتشكّل وتوجد تلك الزعامة ان لم تكن ، أي تنبسط أيديهم بمعاونة يدك العاملة ؛ والاسلام عقلائي عالمي .. خاتم الأديان وأكملها ، وعلىٰ المسلمين ان يجسّدوا أنفسهم وفقاً لتعاليم القرآن الكريم وعدله العترة المطهّرة ، كما علىٰ المسلمين العمل بالقرآن واطاعة العترة الطاهرة (الثقلين الذين تركهما لنا النبيّ الأعظم ﷺ) فانّ القرآن أسس القوانين ورسم الخطوط الأصلية ، والعترة الطاهرة عليهم السلام بقولهم وعملهم هادون الىٰ السعادة والسيادة ، فعليك بالعمل ثم العمل وبعده العمل ـ مادامت الحياة ـ بحدود الله تعالىٰ وأحكامه حتىٰ النصر واعادة سيادة المسلمين ، وعلىٰ الله تعالىٰ الاعانة والنصر والجزاء في الدنيا والآخرة .

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين

((اللّٰهم اجعلنا من العاملين المعاونين الناصرين لدينك والحامين لشريعتك وكلمتك آمين ياربّ العالمين))

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين

تم بعون الله تعالىٰ في ١٥ ذي القعدة / ١٣٩٨ هـ. ق الموافق لـ ٢ / ٨ / ١٣٥٧ هـش. وأنا بالسجن في مدينة كرمانشاه وانتقلتُ إليه من قربه (مدينة شاه آباد غرب) الذي كنّا فيه مبعدين مع جمع من أساتذة الحوزة العلمية، كما تعرف حوادث هذا الزمن.

المحتويات